رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فذكر بالقرآن من يخاف وعيد (٥)

عاقبة الترف والمترفين

محمد ابراهيم شقرة
أبو مالك

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٥)

عاقبة الترف والمترفين

محمد ابراهيم شقرة

أبو مالك

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١- نواميسُ اللهِ تسيرُ في نظامٍ دقيقٍ

إن لله سبحانه سنناً لا تتخلّف ، وقوانين لا تبلى ، ونواميس تمشي في الأكوان في ظهور وجلاءٍ ، تتخذ وِسادَها في النظام الدقيق المحكم الثابت الذي لا يضلُّ ولا ينسى ما أودعه الله إياه ، حتى لكأنَّه محرَّزٌ فيه على نمط لم يُرِدْه الله إلا له فقط ، فكانت منه له يقظةٌ ، لو حلف الإنسان يميناً موثوقةً إلى قوائم العرش أنها يقظةٌ منسوجةٌ من خيوط عسجد الفردوس ما جاوز الحقيقة ، وهذه النواميس والقوانين تعمل في اتجاهين اثنين ، الأول : الاتجاه المتآلف المجتمع ، الثاني : الاتجاه الإفرادي الواحد ، وكلٌّ من الاتجاهين إنما يعمل بمقتضى الحاجة إليه ، وهذه الحاجة ، تتكيّف تكيُّفاً ذاتياً وفق العلاقة التي أوجدها الله سبحانه بين الأشياء ، وبين النواميس مفردةً ومجتمعة ، كلٌّ بحسبه ، والله يقول : ﴿إنا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدرٍ﴾ .

٢- عملُ النواميس تعرفهُ الفطرة

وهذه النواميس ، تعمل في اتجاهين مختلفين طرداً وعكساً .

وقد أودع اللهُ سبحانه فِطَرَ الخلائق العلمَ بعمل هذه القوانين والنواميس ، كيلا تقوم حجةٌ فيهم ، على اختلال العلاقة بينهم وبين النواميس ، ثم لا تلبث أن تفسد وتنقطع ،

ويكون ذلك من بعد إيذاناً بالتغيير والتبديل في حياة الأمة كما أراد الله بمشيئَته المطلقة ، ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ ، وهذا أيضاً قانون من قوانينه العظيمة المحيطة بالكون كلِّه ، الفاعلة في أحواله وشؤونه جميعاً ، في تناسق مؤتلفٍ ، وتوافق لا يختلف . وكل شيءٍ في هذا الكون الشاسع ، لا يتحرك ولا يسكن ، ولا يؤَثر ولا يتأثر إلا وفق هذه القوانين التي أراد الله أن يسيّر الكون بها .

٣- للنواميس فطرة تدلّل على إعجاز الخالق

وقد أودع الله هذه القوانين فطراً تهتدي بها إلى متعلقاتها في أرجاءِ الكون على سعته ، وطول امتداده ، وعرض آفاقه ، التي أمر الله عباده أن ينظروها ويتدبَّروا ما أودعها من أسرارٍ وعجائب ، وآيات تتوالد وتتكاثر ، تدلّل بذاتها على عظمة الإعجاز في خلائقه سبحانه ، خفيّها وجليّها ، صغيرها وكبيرها ، المحسوس منها والمعنوي ، لا يفرَّق بين شيءٍ منها وشيءٍ ، ولكأنما تلكم النواميس والقوانين ـ وقد أودعها الله الكون ، كما أودعه الأشياء الدَّالة بالنظر المجرّد على عظمة خلقه وقدرته ـ قد أمكنها الله من تلكم الأشياء المخلوقة ، حتى صارت كالشيء الواحد ، لا يُدرى بدءٌ له ولا نهاية ؛ قال ربنا سبحانه :

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق﴾ وقال سبحانه أيضاً : ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ .

٤- الإنسانُ كونٌ صغيرٌ

والإنسان كون صغير آخر بما فيه ، يعيش في كون أوسع وأكبر ، وبينهما اكتناف وائتلاف وتوافق بإحكام دقيق وثيق ، وهذا ما أراد الله سبحانه إظهاره والكشف عنه في قوله : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ .

٥- تفكُّر الإنسان في نفسه يزيد إيمانه

وكي يبقى الإنسان موصولاً بالله سبحانه ، يزداد في كلِّ لحظةٍ إيماناً مع إيمانه ، فقد ألقى الله سبحانه في قلب هذا الإنسان قدرة النظر في نفسه ، ليأخذ ما يوفَّق إليه من نفسه (الكون الصغير) الذي يجمع في حقيقته ، بأجزائه الصغيرة ، كل ما فيه الكون الكبير ، لتكون دائماً في موقع نظره ، ومحطِّ حسِّه ، ويقرأُ فيهما معاً قوله سبحانه ﴿لَخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ ، وهذا نمطٌ استدلاليٌّ معجز باهر ، يمنح هذا الإنسان على ضعفه ، القدرة الفائقة على توسيع دائرة تفكُّره ، وتقويم ما يقع فيه من

أخطاءٍ ، وإعلاءِ ما يجتنيه من صوابات ، فيدرأ عن نفسه الأُولى ، ويثبّت ما يجتنيه من الثانية ، ويظلُّ قائماً بأُمور حياته ، وشؤون نفسه بالإعطاءِ والأخذ للأشياءِ التي يحتاجها طول عمره .

٦- إدامة النّظر في القوانين الكونيّة تزيد الإفادة منها

ومن ذلك النظر في النواميس والقوانين الكونية ، والوقوف معها ، أيّان يتذكرها ، ومتى يستذكرها ، والإفادة من كل واحدٍ منها ، وتعديته إلى ما قد يُحْبس عنه من الأمور والأشياء ، التي تبدو للوهلة الأُولى أنها قاصرةٌ عنها وليست تستقصيها على النحو الذي يُظنُّ أنّه يمكن الإفادة منها .

٧- كيف نتعامل مع النواميس؟!

ويجب أن يكون معلوماً ، أن التعامل مع هذه النواميس والقوانين ، لا يكون تعاملاً سليماً ، يفضي إلى الرضا والقناعة والتسليم لها ؛ إلا حين تُدرك أولاً ، ثم تُعرف من كل مواردها ومصادرها ، وكيف تعمل مع الأشياء والأحوال التي تقبل التعامل معها ، لأن النتائج التي تظهر ، قد لا تكون هي المتوقعة

أو المقبولة عند كثير من الناس ، وذلك لخفاءِ تلك النواميس من حيث وجودها أصلاً ، أو من حيث خفاء ما ينتج منها ، زماناً أو مكاناً أو حالاً . والله سبحانه له الأمر والخلق ، وبيده مقاليد الأُمور كلها ، وبقدره وفيه تجري المخلوقات جميعاً ، ولا رادّ لفضله ، يصيب به من يشاءُ ، وإذا أراد لشيءٍ أن يكون فإنما يقول له كن فيكون ، وسواءٌ أكان هذا الشيءُ مجرداً من تعلقه بالنواميس ، أم كان له تلبُّسٌ وتعلُّق بها ، ذلكم أن النواميس هي من خلق الله سبحانه ، وتعلُّقها بالأشياء ، سلباً أم إيجاباً هو أيضاً تعلُّق خلقيٌ ، لكن حكمة الله قضت أن يكون هذا النظام بين الأمور والأشياء والأحوال ، وبين النواميس والقوانين ، طرداً وعكساً ، كيلا يكون تنافر وتضادٌ بينهما جميعاً ، فيستقيم أمر الحياة والكون والإنسان على جادة الأمر ، وسواءِ القصد ، وعلوِّ الرجاءِ ، على وفق ما قدَّر الله من خلقه لخلقه .

٨- أهميّة استحضار النواميس الإلهيّة ومعرفتها

وما ينبغي للأُمة ، بل ولا يصلُح أن تغفل عن استحضار تلكم النواميس في كل حالٍ من أحوالها ، بل ويجب عليها أن تعرف هذه النواميس معرفة ، تعلم معها أنها لا تعرف طريق السعادة والنجاة إلا بالإحاطة علماً بها ، سواءٌ أكانت نواميسُ

موجبةً ، أم نواميس سالبةً ، وتأثير كل واحدٍ منها ، ثم سعة الدائرة التي يعمل فيها هذا القانون ، وطول الزمن وقصره ، وكيف يعمل من بعدُ منفرداً ، وكيف يعمل مجتمعاً ، واجتماع الضدين من النواميس على موردٍ واحد غير ممكن ؛ إذ إنَّ لكل قسم من القسمين عملاً خاصاً يختلف عن عمل النوع الآخر في الأشياءِ والأحوال ، ولا بدَّ أن يوجِّه العبد قلبه لهذين القسمين ، فيأخذ الحيطة لنفسه أن يخلط بينهما ، أو أن يجهل عمل كل منهما فيضع أحدهما موضع الآخر ، فيقع في خطأٍ جسيم ، لا يُستطاع التحوّل عنه لإصابة الصواب في الآخر .

٩- العاقل يُديم النظر في النواميس ليميّز آثارها الإيجابية من السّلبية

والعاقل البصير يرى الأشياء ماثلةً أمام عينيه بالحدس بكل آثارها الإيجابية والسلبية ، فهو لذا يرى حقاً عليه للناس ، أن يعمل على تثبيت الإيجابية منها ، وإذهاب السلبيّة ، على نحو مقتضى النواميس والقوانين التي أودعها الله الكونَ ، فانضبط على وفاقها ، وتحرك على ائتلافها ، وتماسك على تقاربها وتباعدها ، وهذا أمر يحتاج ممن له علم أو شيءٌ من علم ، أن يبقى على إدامةِ نظرٍ في هذه القوانين والنواميس ، كي

لا يفلِت من قلبه شيءٌ مما يخضع لها ـ والكون بكل ما فيه خاضع لها ـ فيَضِلّ نظره ، ويزيغ فكره ، وتتفرق المسائِلُ ، وتتشتت الأمور ، والعارف البصير يدري أن قدرته ـ وإن كانت سبيلها ضيِّقَةً ـ فهو بها على مُلاءَةٍ بيِّنةٍ ، ورؤية واضحةٍ جليَّةٍ ، لاستكشاف الآثار الخفيّة والمسائِل المبهمة ، التي تغيب عن عامة الناس ، وتدقُّ عن سوادهم الأعظم ، ولعلَّ من أعظم ما يعينه على ذلك فيه ، ما ينعم الله به عليه من فيءِ التقوى ، التي تنشئُ عنده المعرفة اللدنيّة الصادقة ، التي تهديه إلى الأشياءِ الخفيّة ، فتكون عنده في ظهور جليٍّ ، كما لو كانت ظاهرة لا تخفى منها عنه خافية .

١٠- أهميّة التكرار والتجربة في معرفة النواميس

وجلُّ هذه النواميس تعرف بالتكرار والتجربةِ ، وتقرأُ في صفحة الكون بالنظر والعقل لها ، والرؤْية الجاهرة ، والمستترة الخفيَّة ، والإنسانُ المؤْمن يزداد بذلك إيماناً مع إِيمانه ، وتقوى حكمته ، ويصيب من لطائِف المعرفة واليقين ما لا يقدر عليه إلا بمثله ، وأنَّى له ذا إِلا به !!

١١- الجهل في التعامل مع النواميس يؤدّي إلى الهلاك

ولقد بصرت في أحوال الناس ، وما يحلّ فيهم من فساد ، وما يلبسهم من قُلَبِ سوءٍ ، وما ينتابهم من قتام البلاءِ ، وثقل العناءِ ، وما يكتنفهم من باطل الجور ، وجور الباطل ، وما تُنتقص به أطرافُ الصالح من أرضهم ، وما يُتَربَّصُ بهم من غوائل الهلاك وخفايا الضراء ، فما علمت أعود عليهم من ذلك كله ، بمثل ما انتهوا إليه من المفارقة عن القوانين التي يجب على الأُمة أن تحاذرها ، وأن تتقي الوقوع في الآثار السلبية التي ينتجها ـ ولابّد ـ التعامل مع هذه القوانين . وهي : الترف ، الظلم ، الاستكبار والغلبة ، البغضاء والكراهية .

١٢- للقوانين اتجاهان: سلبيّ وإيجابيّ

وهذه القوانين تكون عاملةً في اتجاهين ضدين ، فهي تعمل بالفعل سلباً وتعمل بالترك إيجاباً ، ولا يعمل القانون الواحد باتجاهين ضدين في آن واحد معاً ، إذ يستحيل عقلاً الجمع بين الضِّدِّ وبين ضدِّه ، وهذا من البدهيات التي لا يُخْتلف عليها ولا فيها ، لكن الجمع بين قانونين اثنين يعمل كل منهما على

الضدِّ من الآخر ، فهذا يعمل بإيجاب ، والآخر يعمل بسلب ، وكل من القانونين يعمل على نفي ما يثبته الآخر بتجاذب ، أو على إثبات ما ينفيه الآخر ، وقد يلتقي القانونان في وسط الطريق ، والغلبة في نهاية المطاف للأقوى والأشد بأْساً ، وقوة القوانين لا تظهر بجلائها ، إلا بآثارها المقدرة ، التي تُعرف في الناس بالتكرار ، والربط التقديري للتوازن بين الأسباب وبين النتائج ، وكلٌّ من الأسباب ومن النتائج تعمل باعتناق الأُخرى ، لا تنفك هذه عن تلك ، ولا تلك عن هذه ، وإن شِئْتَ قلت : حتى لكأنما هذه تلك ، وتلك هذه ، لكن هذا الانسجام المتداخل ، بعضه ببعض ، لا يُذهب أحدهما الآخر ، ولا يُضلّه فيه .

١٣- ترابُط النواميس وتداخُلها

والحديث عن أي قانون من هذه القوانين يحمل على الحديث في غيره ، واحداً كان أم أكثر ، ذلكم أن القوانين والنواميس متداخل بعضها في بعض ، وقد يكون عمل بعضها فيما تعمل فيه من الأحوال والأمور والأشياء ، يفضي إلى العمل في الأخرى لأن تأثير هذا القانون أو ذاك ، لا يكون إلا باجتماعه مع غيره ، لأنَّ كل واحد له عمل وَتأثير لا يكون إلا

بعـمله مع مـا لا يتم ولا يقـوى العـمل به إلا مع غـيـره ، وهذا تقـدير الله وخلقـه وإرادته وحكمـتـه ، فـسـبـحـانه الـذي بيـده ملكوت كلّ شيءٍ وهو العزيز الحكيم ، وهذا شيءٌ من الإعجاز الإلهي العظيم ، الذي يتجلى في كلماته وفي أفعاله ، ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ .

١٤- إعجاز الكلمات التامّة بالتقاء الكلمة مع الفعل

وإذا أردنا أن نبـرز الإعـجـاز الإلهي العظيم في كلمـاته التَّامَّة ، فإن إعجازه سبحانه يتجلى بأوضح ما يتجلى في نظام قدرته سبحانه على وجهٍ من الإعجاز الباهر الظاهر ، الذي لا يكون على تمامه ، إلا بالتقاءِ الكلمة مع الفعل ، فيتبدّى في يسر النظر ، وسهولة الفكر ، وروعة التلاقي ، وجمال التقدير والحساب ، من غير أن يكون ظنٌّ أنه يمكن الفصل بين إعجاز الكلمة ، والحرف ، وبين إعجاز الفعل والإبداع ، فيتم الإعجاز القرآني على أروع ما يكون الإعجاز ، لكنه إعجاز لا يدركه إلا الذيِ أوتي حَظّاً من الإدراكات الحسية والمعنوية ، تلتقي على صعيد القلب ، لتكون في مجموعها الكليِّ الآلةَ ، التي يدرك بها صاحبُها القدر الذي يَتهيّأُ له من ذلك المجموع ، وينتقص

هذا القدرُ المدْرَك ، بقدر ما ينتقص من هذا المجموع الكلّي ، والنقص الذي يدركه ، لا يكون بآلةٍ من الآلات ، بل بشيءٍ معنوي ، يحصله الإنسان ، بما يضعه الله في قلبه من الهدى والتقى ، حين يصدق هذا الإنسان في توجهه إلى ربه بالطاعة والإخبات ، فيكون له من إدراكه ، شيءٌ لا يكون له بما يحدث في قلبه من ضعفِ هذه الطاعة ، والإخبات ، التي لا يكون للعبد من السعادة والهناءَة على صعيد الدنيا إلا بها .

١٥- تفكُّر الإنسان بنفسه مذكّر بالقوانين لا ينفكّ عنه

وقد علمنا نحن البشر أنَّ طائف الخير ، لا يطوف بجماعة المؤمنين في الدنيا إلا إن تهيأت قلوبهم له على وفاق الإدراكات الموصولة بتلكم القوانين الكونية ، وحين يضلّ تفكير الإنسان في إدراك أسرار القوانين العظيمة المبثوثة في الكون الشاسع ، فإن نظرةً سريعةً في ذاته المتمثلة في طوله وعرضه المحدودين يلمُّ بها كثيراً مما يغيب عنه في هذا الكون العظيم ، وهذا ما يلفت القرآن العظيم النظر إليه في آية قصيرة ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ ، فلا يضل ولا ينسى ، وهل يمكن أن يكون شيءٌ من الضلال أو النسيان عن قانون يدأب يتحرك معه ،

ويسكن معه ، وينظر بشيءٍ منه ، ويسمع ، وينطق ، ويفكر ، وحياته كلُّها ، بكل أسرارها ، ومقوماتها ، وقدراتها ، المحسوسة والمقدرة ، مطويّةٌ فيه ، ﴿هذا خلق الله﴾ ، ﴿والله أحسن الخالقين﴾ ، ﴿والله هو القوي﴾ .

١٦- فرضية التعاون على فهم القوانين

وبدهي أن التعامل مع القوانين والنواميس الكونية ، يحتاج إلى فقهٍ ، يمكِّن الناس من وصل أنفسهم بها وصلاً يُقدرهم ولو على بعض الصواب ، وهم يبصرون بهذه النواميس والقوانين ويتعاملون معها ، وليس في وسع كلِّ أحدٍ في الناس أن يستكشف هذه النواميس على الوجه ، الذي يصله بآثارها ، ليكون له منه فقهٌ قوي جيّد ، لذا فإن حقاً على القادرين على ذلك أن يبَصِّروا من هم أدنى منهم منزلةً ، فيكون هذا واجباً يفرضه الله على عباده : ﴿وتعانوا على البر والتقوى﴾ ولا أحسب الأمة إلا وأنها تعلم أن التعاون فرضٌ لازمٌ لا تقوم بحقه إلا إن هي بذلته وتداولته بينها ، في حبٍّ لأدائه ، وإخلاص في بذله لتكون على شيءٍ من معنى قوله سبحانه : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتُؤْمنون بالله﴾ وهذه الآية الواصفة الأمة على أرفع ما

تكون الخيرية فيها ، هي بحروفها وكلماتها الحاميَتُها بهذا الوصف العالي ، وهي بذلك قانون عالٍ ، يبقى أبد الدهر ، يحدِّد لها طريق الخيرية ، التي تمكنها بهذا الوصف من البقاءِ على رؤْيةٍ باصرةٍ في عيون الأُمم قاطبة ، بما أولاها الله سبحانه من نعمٍ تجري عليها ، وما اختصها من خلالٍ وفضائل ، أسبغها عليها ، في غير انتقاصٍ لها ، أو إخلافٍ لوعده فيها ، ما دامت تظاهرها بحقها من الطاعة ، وتساندها بسبب ديمومتها من الدينونة له سبحانه على أشرف ما تكون الدينونة . وإلى أن يأتي الله بأمره .

١٧- قانون زوجي: خيريّة الأمّة، وواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهذا قانون زوجي عام ، له تعلُّقٌ بكل القوانين التي يقوم الكون بها . الجزءُ الأول منه في قوله سبحانه : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ ، والجزءُ الثاني منه في قوله سبحانه : ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤْمنون بالله﴾ ، فالخيرية التي أثبتها الله وقررها لهذه الأمة وأقَام وجودها عليها حقيقة مسلَّمة ، وهي فيها ، قانونٌ لا يتخلَّف إلا إن هي نبذته ، ونأت عنه ، وأخلفت ظن ربها سبحانه فيها به ، وقطعت نفسها من

الجزء الثاني من جزئي هذا القانون ، ذلكم أن هذه الخيرية مقررة لها ، بتحقق الجزءِ الثاني من هذا القانون فيها ، فهو قانون موصول بقانون ، كل منهما يأخذ من الآخر ويعطيه ، فيكون منهما معاً ، بالأخذ والإعطاءِ قانون واحدٌ ، لا يغني أحدهما عن الآخر ، إلا أن يكون واهباً موهوباً في آن معاً ، بل إن كلاً منهما شرط في تحقق الآخر وديمومة عمله وتأثيره في الأشياءِ والأحوال .

١٨- فرقٌ بين هذا القانون والقوانين الأخرى

وهذا الوصل ـ الذي بين جزئي هذا القانون ، الذي هو شرط ظاهر في ديمومة أداءِ هذا القانون ـ هو أيضاً يشبه الشرط في ديمومة أداء القوانين الأخرى كلِّها ، وضبطها حركة الكون ، والحياة في دقة ، وتوافق وتعاون دائم لا ينفك ولا ينقطع ، لكن هناك فرق بين هذا القانون وبين القوانين الأخرى ، فهذا القانون مركَّب من جزئَين ، وهو بهذا مختلف عن القوانين الأخرى ، وقد يشبهه من هذه الجهة غيره مثله ، وينكشف للمريد بالتحرِّي والاستقراءِ ، ولكلِّ قانونٍ منها عملٌ وتأثيرٌ خاصٌّ به ، وعملٌ وتأثير يشرك به غيره ، وقد يكون صعباً على العقل استظهار هذا أو استبطانه على جهة تعلُّمه أو معرفته .

١٩- كلُّ شيءٍ مُحتاجٌ إلى القوانين

بيد أن الأمر الذي يجب أن يكون معلوماً علم اليقين ، أن هذا الكون ـ بكل ما فيه من أشياءَ وأحوال متحركة وساكنة متغيّرة وثابتة ـ يحتاج إلى القوانين كلها ، ما ظهر منها وما بطن ، في كلِّ ساعات الليل والنَّهار ، والإنسان ـ وهو كون صغيرٌ كما أسلفنا ـ هو جزءٌ من هذا الكون الكبير ، وهو يخضع لهذه القوانين ، كخضوع الكون الكبير الشاسع الأطراف ؛ والإنسان بحكم أنه هو الكون الصغير ، وأنَّه يعيش داخل الكون الكبير ، فلا يستطيع أن يخلع نفسه منه ، وأن يستقل بأموره وأحواله بذاته ، وهو ناءٍ عن الكون الكبير ، وهو المستأثر بِجُلِّ هذه القوانين ، لكبره وسعته ، وهذا يقتضي ـ حتماً ـ أن يكون له من الأمور والأحوال ، ما يكون حظُّ الإنسان ـ بالنسبة لها ـ قليلاً ، بل وقليلاً جداً ، ونظرة سريعة يلقيها الإنسان على ذاته ، يعلم كم هو كبير ، بما أودعه الله سبحانه من آيات كثيرة ، منها المرئِيُّ المنظور ، ومنها المُعمَّى المستور ، وكلُّ واحدة منها مودعةٌ أسراراً عِدّة التقت فيها على نسقٍ متماسكٍ شديدٍ نضيد ، تبرز فيها قدرة الخلاّق العليم لتكون منها بهذا النسق النضيد آيّةٌ ، تزيد من إيمان المؤمنين إيماناً ، وتعمّق فيهم شعيرة التقوى ،

وتلزمهم الاستقامة على الجادَّة بأمر الله سبحانه ، وتقيمهم على مراده سبحانه في المكره والمنشط ، والعسر واليسر ، والغضب والرضا ، والسقم والعافية ، في غير ملالةٍ ، ولا إسفافٍ ، ولا إملاج ، ولا افتئاتٍ على الحقِّ وأهله ، ولا إخفاءٍ لشيءٍ مما يكون في محاولة إخفائِه زيادةٌ في بهاءِ ظهوره .

٢٠- المؤمنُ الحقُّ هو الأجدرُ بمعرفة النواميس والإفادة منها

ولقد رأيتني وأنا أرنو بطرف خفيٍّ أو جليٍّ إلى ما أودع الله سبحانه صفحة الكون من الآيات الدالة على قدرته ، والدلائل الهادية إلى عظمته ، وانتظامها جميعاً في سلك الإرادة الإلهية ، فعلمتُ علماً لا يخالطه أدنى شكّ ، في أن الإنسان الذي يُحْرم الإيمان ببعضٍ مما جاءَ به سيِّدُ الأنبياء ، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، فقد آذن نفسه بالشقاوة ، ووقفها على شفا جرف الهلاك ، بل وألقى بها في أتون العذاب ، وصيَّرها إلى الحرمان من نعيم الجنة ، ذلكم أن الله سبحانه ما أراد من كل ما شرع إلا جمع العباد على رضاه ، ومن كل ما خلق إلا تحقيق المصالح والمنافع لهم ، وجعل لهم قلوباً واعيةً ، تولِّيهم وجهة الرجاءِ فيه ، والبحث عن كلِّ ما يقربهم من

أسباب الخير والاستمساك بهديه ، الذي لا يضل من أخذ به ، وانتظم عقولهم بسلك مودَّته ، والرغبة فيما أعدَّ لهم من جميل الثواب الذي أكَنَّه بستر غيبه ، فصارت طاعتهم له نعمةً غامرةً لهم ، يصلون بها أنفسهم ؛ أنهم بها هم الأهل والأحقّ بها ، لا يبغون عنها حولاً ، ولا يرون من دنياهم إلا الازدياد منها ؛ لتكون هي القُربى والوسيلة والرجاء . فانظر ـ رفع الله قدرك ، وبوَّأكَ منزلة الأبرار المقربين ، وألهمك زاد المتقين ، وغنَّمك الفوز بأنهم الشهداءِ والأنبياء والصِّدِّيقين ـ إلى آثار السنن والقوانين التي أنعم الله بها على الخلائق ، وجعل للإنسان منها الحظّ الأكبر ، ليكون ـ باستقرائها ، واستظهار آثارها ، ومعرفة العلامات والدلائل التي تهدي إليها ـ على بيِّنة واضحةٍ قوية بها أولاً ، ثم ليستطيع أن يُؤلِّف بين الأشياءِ والأحوال التي تعرض له في حياته ، فيكون الأقدر على الإفادة منها ، بأكبر قدر يستطيعه على الوجه الصواب ، أو الأقرب والأدنى منه ، وهذا شيءٌ نلمحه في قوله سبحانه : ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ ، والمؤْمن الحق ، هو الأجدر والأحق بالعلم بهذه النواميس والقوانين ، ثم هو الأجدر والأحق بالإفادة منها ، ذلكم أنه بإيمانه ، ربما كان علمه إلهاماً يُلْهَمُه في كثير من

الأحيان ، يُجْمَعُ إلى ما يكون من علمٍ بالنظر والاستقراءِ ، ونصب الدليل ، فيكون له طريقان يظهرانه على كل القوانين والسنن ، التي أقام الكون عليها وبها ، ومعلوم بأن من هذه السنن والقوانين ، ما هو ناطق جاهر ، فليس يحتاج إلى كثير من النظر وإدامة التدبر والتفكير ، ولربما تظهر في أوج ظهورها من أول نظرة تُرى فيها ، وحكمة الله العَليَّة الجليلة من وراءِ ذلك ، ومن أمامه .

٢١- معرفة القوانين من أصول النّعم التي تستوجب توحيد الخالق

وكما ذكرت ـ من قبل ـ فإن القوانين والسنن المبثوثة في الكون ، مما يزيد في إيمان المؤمن ، ويجعله أقرب في تقواه من الله ، وأرضى في عمله الصالح له ، وأشد حرصاً على أخذه نفسه بالعزيمة ، وإعلائها بأنماط السلوك ووسائل التربية التي وضعها الله سبحانه في سور الكتاب ، وخلَّفها لنا نبيّنا عليه الصلاة والسلام في كلماته وأفعاله وأحواله في سنته الجليلة ، إذاً وليتأمَّل جيداً القارئُ عظيم نعمة الله على العباد ، حين يذكر في نفسه ؛ أن هذه القوانين والنواميس التي يمسي الكون كلُّه ويصبح ، موثوقاً إلى أطرافها ، هي من أصول النعم ، التي

وصلها بالعباد ، ووصل العباد بها ، وأجراها ـ ظاهرة وباطنة وباقية ، آحاداً ، وجماعات ؛ ليستيقن أن هذا الكون الشاسع الواسع كله ، قد جعله الله له ، وسخره لنفعه ، وما عليه إلا أن يُحسن المأتى إلى المنافذ التي يستطيع أن يدخل منها إلى بواطنه الخفية ؛ إذ فيها من النفع الكثير الكثير ، وإن كان في ظاهره ما يغني عن بواطنه ، غير أن النفع لا يكمل على مداه للإنسان ، إلا باستبطانِ ما دقَّ وخفي منه ، وجَمْعِه إلى ما جلَّ وظهر ، فالله سبحانه ـ وقد خلق الإنسان ؛ وما خلقه ـ أينما كان ، وحيثما ، وكيفما ـ إلا لعبادته وحده ـ ما أفاض عليه ما أفاض ، وبسط عليه ما بسط من النعم ، إلا لتكون السبيل إليه بعبادته ، مبشّرةً ، ليس فيها إشقاقٌ ولا عنت ، فيظل موصولاً إليها برغبة ونشاطٍ على نحو ما شرع الله وأحب لنفسه من هذه العبادة التي لا تكون إلا له وحده ـ .

٢٢- قوانين يجب على الأمة الحذرُ منها

وقد نعمت الأمة المسلمة زماناً مديداً ، وذاقت من أنْعَمِ نِعَمِه سبحانه الكثير الكثير ، وهي تحاذر ما يجب عليها أن تحاذره من تلكم القوانين والنواميس ، فتبيت معها ليلاً ، وتنتشر معها نهاراً ، على أوضح ما تكون الرؤية القلبية البعيدة والقريبة

بتفاعلها مع قوة تلك القوانين والنواميس ، على خفاءٍ في بعض جوانبها ، ووضوح في البعض الآخر منها ، وبهذه المحاذرة اليقظة التي عاشتها الأمة ، أَمِنَت الوقوع في الضراء الشديدة ، التي أثقلت كاهلها من بعد ، فصارت بذا عبئاً على نفسها ، وشقَّ عليها أمر حياتها ، وغدت تلتمس الهناءَة في غير وجوهها ، وغابت عن عيونها القوانين والنواميس بكلِّ ما تُحدث في النفس ، والحياة ، والكون ، من آثار ، يلتئمها بحكمته الخالقُ سبحانه ، في أبهى صورة وأحسن ما يعود على الخلائق من منافع جمّةٍ ، تجري على نسقٍ متآلفٍ ، وغايةٍ لا يُختَلف عليها .

٢٣- وقوانين يجب على الأمّة أن تقبل عليها

أما القوانين التي تنشئُ الآثار الطيّبة ، وتُحدث في نفس الإنسان ، ما يطمعه في بناءِ ذاته ، حسِّيّاً ومعنوياً ، فإنَّ عليه أن يُقْبلَ على تلْكم القوانين ، إقبالاً يحفزه على زيادة في النظر المتدبِّر في الآثار التي تنشئُها تلكم القوانين ، ليزداد إيماناً مع إيمانه ، ويشتد في السعي الطائع إلى ربه سبحانه ، ويقمع الرغبة الجامحة في صدره ، أن يلوذ بغير القيُّوم بهذه القوانين والنواميس التي نصبها وأقامها دلائل قدرته على واسع رحمته وعظمته ، وأن الخلق والأمر كلّه لله وحده سبحانه ، وأن نسيان

هذا يوقع الإنسان ـ ولا بدَّ ـ في حُفَر الضّلال المظلمة ، ويُسْلمه إلى الاستكبار عن الحق الذي قامت عليه السموات السبع ، وإن بدا للمتأمل الناظر ، أنّ النسيان عُذْرٌ يدفع الإثم عن الناسي ، إذ النسيان في أكثر المواطن والأحوال إنما ينشأ من صرف الذهن عن الأشياءِ التُنسى ، وعدم الاهتمام بها ، أو الغفلة عنها ، بيد أن هذا ، لا يبعده عن العفو ، الذي من الله به وجعله سبحانه سبيلاً واصلةً الناسي ، وإلا لَتردَّى الناسون في حُفَر النار ، عقوبةً من الله ، ينزلها بهم في أمرٍ لا يملكون لأنفسهم فيه ضَرّاً ولا رشداً ، وهل من ظلمٍ أنكى من مثل هذا ، والله سبحانه ـ حاشاه ـ أن يكون منه ظلم مثل هذا ، يوقعه في عباده .

٢٤- مِن أرضى القوانين: «الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر»

وقد علمنا آنفاً أنّ مِن أرضى هذه القوانين ، وأحسنها في الناس أثراً ، ذلكم القانون ، الذي يستقيم به العباد على المحجة الواضحة ، التقودهم إلى رضوان خالقهم ، ويُبوءُهم أعلى منزلةٍ في الجنَّة ، ويُنيلهم الحبَّ العظيم في الأرض وفي السماء ، ويثبتُهم على الحق الذي بعث الله به نبينا محمداً ﷺ ؛ هو

قـانون : «الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر» ، القـانون الذي أظلّهم بالخيريّة ، وجعلها فيهم سمةً لا تنفك ، ولا تزول ، ولا تبرم بهم ، ولا يبرمون بها ، لأنها منحةٌ إلهية ، وهبةٌ من ذي العرش المكين ، ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس﴾ ، ومن هذا القانون استضاءَ الكون ، وانبعث الرجاءُ ، وتقطعت أسبابُ اليأس وانتشرت على غير انتظار بلقاءٍ .

٢٥- بقدْر الموافقة أو المخالفة تكون آثار القوانين الإيجابية أو السّلبية

وكلُّ قانون من هذه القوانين ، ينشئُ أثراً أو آثاراً بقدر ما تكون المشاقة أو المخالفة عنه ، أو بقدر ما يكون من موادَّةٍ أو اقتراب منه ، فإمَّا تُحمد وإما تُذَمّ ، وإما تُسْعِدُ ، وإما تُشقي ، وكلٌّ منها إما أن يُدامَ الحرصُ عليه فيطول بقاؤُه ، وإما أن يُفرَّط فيه فينقطع رجاؤه .

٢٦- لماذا يُسرع الخراب إلى دولٍ دون أخرى؟!

وهنا لا بدَّ من سُؤَال وهو : لماذا يسرع الخراب إلى بعض الدُّوَل ، ويُنْهِكُ بناءَها ، ويأتي على ما جُمعَ إليها من خيرٍ نعمَتْ به زماناً ، أو على بعضه قليل أو كثير ، في حين نرى

دولاً غيرها تطول أعمارها ، وتزدادُ على الأيام قوة ومنعة ، ويَسْبُغُ من فوقها رداؤها الزاهي ، وينأى عنها الفسادُ والوهن ، وتُقبل عليها النعمة بكلِّ أسبابها ودواعيها ، وتبقى في عنفوانها الشديد ، ما دام يتحرك إنسانٌ من فوق ترابها؟! وهذا أمرٌ جليٌّ لا يخفى عن الناظر ، ولا يكاد يغيب عن البصر ولا يتوارى عن الأبصار والأسماع من حياءٍ ، ولا من خوفٍ ، وإن كان لا بدَّ من الدلالة عليه أو الإشارة إليه ، فإنَّما ذلك من باب صرم الشَّكِّ ، والإفضاءِ إلى القطع بالأمر على وجهٍ لا يُشاب يُنَهْنِهُ وُضوحه وثباته .

٢٧- أسرعُ القوانين خراباً وإفساداً: قانون الظلم

وأول ما يطالعُ الإنسانَ من تلكم القوانين والنواميس ، التي تسرع بالخراب إلى أرض الدولة التي تهوي إليها ، قانون الظلم ، ولا أسرع إلى الخراب والإفساد منه ، وإذا أصاب الناس من ضَّرائه ، ما يُغشّي الأرض التي يحلُّ بها ، ليصير عادةً فاشيةً من العادات ، لا يُنكر في قليله وفي كثيره ، ولا يعرضون عنه بشدَّة ، ولا يَرضَوْنَهُ في ضعفٍ ، فهو عندهم في كلا الحالين على سواءٍ ، يصبحون ويمسون فيه على أنعم حال ، فإن أصابتهم منه فتنةٌ ، تلبّثوا فيها على رجاءٍ في خير ، وإن كانت منه نعماءُ

ـ ضلَّت طريقها ـ قالوا : ما ذلك إلا من إحسانٍ أردناه ، وسعينا به وفيه ، إلى ما ليس يُسلِمنا إلا إلى ما هو أبهى حسناً ، وأنضر لوناً ، وأوعب من خير حظّاً ، لكن وإن بدا لهم ضغثٌ من خير ، يحسبونه أقرب إليهم من شرٍّ ، رأوه في أمم من قبلهم ، لا يبصرون من باطنه ما يحذرونه ـ حتى وإن بدا لهم ما لا يرجون معه نجاةً من مَسٍّ ضراءَ تأكل من أطرافهم ، وتعقرهم من أعقابهم وذلك لأنهم قطعوا شوطاً طويلاً من أعمارهم في غمرات الظلم الكالحة للغبراءِ ، تسوقهم إلى مضاجع الحتوف الآيسة ، لا تخفي عنهم إلا ما يبدو لهم منها ، ولا تبدي لهم إلا ما يخفى عنهم منها ، وكأن المرجوّ منها ميؤُوسٌ ، والميؤُوس منها مرجوٌّ ، فأينما يوجه الواحد وجهه لا يبصر إلا النقيض ، ونقيضه لا يُعرف بخفائه وطمسه .

٢٨- الظلمُ وضعُ الشيءِ في غير موضعه على عَمدٍ وقصد

وليس يخفى على أحدٍ في الناس ، أنَّ الظلم هو وضع الشيءِ في غير موضعه إما بزيادة ، وإما بنقصٍ ، وإما في غير زمانه المقدر له ، وإما في غير مكانه المعدِّ له ، على تعمُّد لذلك وتقصُّد ، أما إن كان على غير تقصُّد ولا تعمُّدٍ ، فليس ذلك

إلى الظلم من سبيل ، ومن يواقعه ، بنسيانٍ ، أو بخطأٍ ، أو بإكراه ، فلا من حرجٍ عليه ، ولا إثمٍ ، وكما لو كان في نومٍ أو غشيةِ ذهولٍ ، أو حديثِ نفسٍ ، وبمثلِ هذا تعلم أن الله سبحانه يعلِّم عباده ، كيف ينأَون بجنوبهم عن الظلم ، ويخالفون عنه ـ ولا بدَّ ـ إلى العدل ، الذي جعله سبحانه قوام الوجود ، ومَهَّد به السبيل إلى الآخرة وهي الحيوان ، الذي ترتقي في معراجه الصالحات من الأقوال والأعمال والأحوال .

٢٩- الفِطر السّليمة تعرفُ الظلمَ وتنفر منه

ولا تخفى من الظلم خافيةٌ على شيءٍ من الخلائق ، فقد جعل الله في فطرها ما تقتدر به على إدراكه واستجلائه ، من غير طول تفكير ، وانتظارِ ما ينجم عنه ، أو يكون أثراً ليس يحمد به ، فلا يكاد يكون بخفاءٍ أو في ظهور ، حتى تهيج في القلب نفرته ، وتستعر في الصدر كراهيته ، وتنثال عليه من كل أقطاره تصورات لا يستطيع لها عدًّاً ولا ردًّاً ، كل تصوُّرٍ منها له لون يُمد له الظلم مدًّاً على قدره ، ويعذر المظلومُ نفسَه في كلِّ ما يكون من صواب أو خطأٍ ، يخالجه بدفع أو بجلبٍ ، وحين لا يجد المظلوم قدرةً أو صبراً عنده على أخذ نفسه بشيءٍ من الرَّويَّة والأناة ، ليفكر في صرف الآثار السَّيِّئة الناجمة من

الظلم ، فإنه بذلك يعقد على قفاه عقدة صعبة إمعاناً ، يزيد بها من ضراوة الظلم ومضاعفته ، ويُضعِف مما يكون قد أجمع نفسه به ، على أن يدرأَ الظلم الذي أصـــاب منه ، بردِّ الحق الذي سُلِبَه ، وربما كان معه العفو عن شيءٍ فاته منه ، بل وعن أذىً أدركه جرَّاءَ غيبته عن الحق الذي غاب عنه زماناً ، أو ضل الطريق إليه وهو يبحث عنه ليعيده إلى حِرْزِه تارة أخرى ، وربما كان ذلك من طول تدبُّرٍ وتفكُّر يقول في نفسه : هل يكون لقاءٌ به؟ فلا يكون جواب إلا إن : طال به عُمُرٌ وكتب بقدرٍ .

٣٠- حين يتوبُ الظالم؛ فما أجملَ العفو !

ويجمل العفو مما كان من ظلم ظالم ، حين تبدو التوبة منه شعاراً يُرى في شرود التائب ، أو في شرود الظلم نفسه عن الذي تاب ، لأنه لم يَعُدْ يجد له زاوية في قلبه يكنُس فيها ، يراود صاحبه الذي كان من قبل لا يرى خيراً له منه ، يربو فيه بين أعلاه وأسفله ، ويملأ عليه أقطار نفسه بالتفكير والحرص ، في وطيء ســهل ، وحَـزَن شِـعب ، وصـعـودٍ لاهثٍ ، ونزول واجف ، في مثل هذا يجمل العفو ، ويزدان بشفافية الروح ، ورُواءِ الأمل ، وهناءَة الرضا ، فلا يكون أجمل ، ولا أروى ، ولا أرقَّ منه ، ولا يبقى له من أثرٍ يهوي به على شيءٍ ، ويغيب عن

الأعين ، وربما كان مِن بَعدُ شوقٌ إليه ، لا ليجوس في خلال الذين كانوا يوماً يحبونه من قبلِ توبةٍ منه ، ويرون فيه رغبةً لهم كانت تؤزُّهم عليه ، وتمهِّد الطريق لهم إليه ، ولا لجماعة جديدة تصوغه على صورٍ جديدةٍ ، غير تلك التي رآها الناس من قبل ، لتكون بجدَّتها مقبولة ، «فلكل جديد بهجةٌ» ، بل يكون الشوق من طول انقطاعٍ عنه ، ونأْيٍ عن آثاره التي تذكِّـر به ، وإلف الشيء زماناً ، لا يسهل معه فراقه ، ويصعب فيه أو منه التَّودُّدُ والخُلّة ، حتى وإن كان هذا الشيء يبدو جافياً غليظاً نكِداً .

٣١- قدرة الإنسان على التأليف بين النقائض

ومن الناس من لا يكون له علوق بالأشياءِ وإقبالٌ ، إلا على شدَّة فيها وعيوفةٍ في ظاهرها وباطنها ، فالأَنفس متخالفة في طباعها ، وهي على تخالفها متراضيةٌ متشاكلة وعلى تنافرها متآنِسةٌ متآلفةٌ ، وحتى بما ركِّب عليه الإنسان ، من جبلَّةٍ يقبل بها ويدبر ، ويحب ويكره ، ويرضى ويغضب ، ويبدي ويكتم ، وبكلٍّ نقيضين فيه ، جعل فيه خالقه سبحانه من القدرة على التأليف بين كل نقيضين ، ثم بينها كلها على نسق واحدٍ ، لا يختلف في ظاهرٍ ولا في باطن ، حتى ليبدو الإنسان بهذا تارة على حالٍ ، ثم يبدو على نقيضها ، فيقال في الحال الأولى :

ليس هو إلا عليها ، ثم يقال في الثانية : ليس هو إلا عليها ، وهذا من عجيب قدرة الله فيه .

٣٢- ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾

فلينظر الإنسان في نفسه ، ليعلم عجيب قدرة الله فيه ، فيراها مرتين واسعتين ، يختزلانه اختزالاً شديداً بكل ما يظهر وما يخفى منه ، تحقيقاً لقوله سبحانه : ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ يراها في الأولى في مكنون النطفة ، وفي الظلمات الثلاث في عجزه ، وهو به أقرب ما يكون إلى العدم ، وفي الثانية من بعد ظهوره ، في أطواره التي يتدَّرج فيها كائناً قادراً في مراحل عمره ، حتى يتوسَّد التراب ، وهو في رؤْيته هاتين المرَّتين ، لا يقع في خاطره ، ولا يصيب من نفسه إلا ما يزيده إيماناً بعظيم قدرة الله . وعجيب قدرته فيه ، فلا يكون منه إلا إمعاناً في التسليم بما يقضي فيه ويريد ، والوقوف عند كل شيء فيه ، صغر أم كبر ، وعلى أيِّ حالٍ كانت رؤيته ، وأيَّ شيءٍ يراه في ذاته ، فهو ـ وإن دقَّ أو جلَّ ـ لا يختلف في دلالته على بديع صنع الله سبحانه وعظيم قدرته ، في كلِّ ما يعرض له ، في صفحة هذا الكون الباهر ، وإن كان يبدو له للوهلة الأولى ، أنَّ هناك فرقاً بين ما يدقُّ وبينما يجلُّ في بديع صنع الله سبحانه في كونه .

ولست الآن بصدد ما أبْتُ عن شيءٍ منه فيما عرضت له ، فهذا كله يمكن تصوره ، والاكتفاءُ بأن يكون في هذا التصور ، مندرجاً في دائرة القانون العام الذي وضعه الله سبحانه لإقامة نظام الكون ، والتنسيق بين أحواله وما ينشأُ من مقتضيات فيه ، الظاهر منها والخفيِّ .

٣٣- قانونٌ سالبٌ: (التَّرَفُ يدمّر الدّول ويذهب بالحضارات)

وكما ألمحنا من قبل ، فإن القوانين الإلهية منها ما هو سالبٌ ، ومنها ما هو موجب ، فالموجب مثل ما جاءَ في قوله سبحانه : ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ ، أي : (نصر الله في دينه ، وتحقيقُ مقتضى لا إله إلا الله ، جالبٌ النَّصرَ للأمة) ، والسالب مثل : (الترف يدمِّر الدّول ويذهب بالحضارات) ، ولا يعنينا الآن القوانين الموجبة ، بل يعنينا السالبة منها ، وتقديمها هو الأولى والأحق .

٣٤- التَّرفُ في اللغة

والأول منها هو الترف : وفي لغة العرب يقال : ترِف بكسر الراءِ ، تنعَّم . وأترفته النعمة : أطغته ، أو نعَّمته ، كترَّفته تتريفاً ،

وفلانٌ تترَّف : أصرَّ على البغي ، والمترف كمكرم : المتروك يصنع ما يشاءُ لا يمنع ، والمتنعِّمُ لا يمنع من تنعُّمِه ، والجبَّار ، وتترَّف : تنعَّم ، واستترف ، تغتْرف وطغى .

من هذه المعاني لكلمة ترِف وما تفرَّع منها ، فإنها لا تخرج عن الذَّم ولا تدلُّ إلا عليه وإليه .

٣٥- الترفُ في القرآن الكريم

ووردت مادة الترف في القرآن الكريم في سبعة مواضع في صيغ مختلفة ، أترفناهم ، أُترفتم ، أُترفوا ، مُترَفوها ، مترَفين ، مترَفيها ، مترَفيهم ، وحيثما وردت لصق بها الاستكبارُ والبغيُ والتَّصعُّرُ ، وكلُّها تدَّرئُ بالظلم ، والظلمُ يدرئُ بها ، والتَّرَف لا يولِّد إلا الرذائل ، ولا يبقي على الفضائل ، وليس ذلك كائناً في حائط المترفين فحسب ، فإنه يطوف على الأحياء جميعاً ، فلا يمرُّ بشيءٍ منها إلا وهرَّأه ومزَّقه وضعْضعه ، وخلَّى ما بينه وبين كل موصلةٍ بشرٍّ وسوءٍ إليه ، فلا يمر بخير إلا وانتقصه ، ولا بشر إلا وأرباه ، ولا بفضيلة إلا وأوبقها ، ولا برذيلةٍ إلا وجمَّلها ، ولا يُطِلُّ من شرف عال أو خفيض إلا ويكادُ يتردَّى ، ولا يأوي إلى ركن قصيٍّ مظلمٍ أو مضيءٍ إلا ويكادُ يَضِلُّ أو يخفى ، ولا يعرض القرآن لمصائر القرى التي آلت إليها ، بعد طولِ أمدٍ أو

قصره إلا والترف الضَّاري يسعى من ورائها ، ويمشي من بين يديها ، ويحيط بها من كل نواحيها ، فلا تجد مفرَّاً من التسليم له ، والإذعان لإرادته ، والرِّضا بكلِّ مقتضاه ، لأنّ قضاءَه بأمره الشائس الحائس لا رادَّ له ، ولا نجاة منه ، وبدؤُه ينبئُ عن ختمه .

٣٦- الترفُ سببُ هلاك القرى، وأعظم مظاهره الفسوق عن أمر الله

وآيةٌ من كتاب الله تصور هذا الأمر أقوى تصوير ، وتعلي منه في الناس بكل ما يخفى وما يعلن من معانيه ، وحروفه ، وحركاته ، وسكناته ، وانفعالاته ، وسكونه ، وحركاته ، وظهوره ، واستتاره ، وهي قوله تعالى : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها فحق عليها القول ، فدمَّرناها تدميراً﴾ ، فقد صرَّحت الآية بأنَّ الهلاك الذي تدركه القرى ، أو يدرك القرى ، الترف من ورائِه دائماً ، والإرادة هنا ليست هي الإرادة المستغرقة الملزمة ، التي لا يستطاع التحول عنها ، بل هي الإرادة التي تعقب الأعمال ، وهي الأسباب التي تكون منها النتائج والآثار ، وليس من شكٍّ في أنَّ الترف من شرِّ الأعمال التي تسارع في جلب الدَّمار واستدراجه ، وما ينبغي أن يغيب عن الناظِرِ الآيةَ ، ليعلم أن الفسوق عن أمر الله ، والجنوح به إلى

المعاصي ، والنأيَ عن الطاعات ، هو أعظم مظاهر الترف ، وأشدها ظهوراً وشيوعاً ، في حياة المترفين ، المترعين بالتُّخمةِ وألوان الشهوات التي لا تبرح حياتهم ، ولا تنفك عن شواذ سلوكهم ، ولا تفارقهم في غدوهم ورواحهم .

٣٧- معنى «الأمر» و«الإرادة» في الآية

والأمر في هذه الآية ، هو الأمر الذي تعقد به الآصرة بين العبد وبين الله سبحانه ، أن يكون مُخلصاً في إنفاذ أمره حباً بطاعته ، واجتناب نهيه كرهاً بمعصيته ، وإذا أراد الله بقوم خيراً هيَّأ لهم أسبابه ، وإذا أراد بقوم شراً أنالهم أسبابه ، والإرادة هنا كما ألمحنا قريباً لا تعدو أن تكون هي التي يكون منها الخلقُ والإيجاد ، وليست هي التي تقسر الخلق ـ وقد أوجدهم الله سبحانه ـ على مباشرة ما نهاهم عنه أن يأتوه ، فأتوه بإرادته القسرية ، حتى كأن لم يكن من الله حيلةٌ في درءِ ما يكره الله لعباده ، فأتوا ما يكره الله أن يأتوه ، وهنا حريٌّ أن يسأل العبد نفسه : كيف تكون التسويةُ بين ما يكره الله وبين ما يحبّ ، فهلاَّ كان قسر إرادة الله سبحانه ، القاضية بالخلق والإيجاد ، من غير أن يكون للمخلوق والموجود إرادة فاعلةٌ ، قادرةٌ على الجلب والدفع حسبما تقضي الحال التي تقضي بهذا أو بذاك ،

بل هي الإرادة ، الخالقة المحيطة علماً بما يكون من نفع أو ضُرٍّ في الأشياءِ والأحوال وتكون بها الهداية الراشدة ، أوَ الضلالة الصَّادَّة ، بما كان من خلق الله في ذوات العباد من الإرادات القادرة على التفريق والأخذ ، بين هذه وبين تلك ، فيهتدون بهذه الإرادات إلى ما يحقق مصالحهم ، أو يحدث لهم من المفاسد ما تكون بها شقوتهم ، وانحلال أمورهم ، واختلاط شؤُونهم ، إذاً : فالإرادة في قوله : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية﴾ ، هي الإرادة القادرة على تحويل الأمور إن أرادت ، والله سبحانه ، ليس يريد لعباده ما يضرهم ولا ينفعهم ، فإن هم أرادوا ، كانت إرادة الله حيثما أرادوا ، وليست هي الكائنة على ما يعقل ـ ببلادة حسٍّ وتعطيل إرادة ـ أهل القدر الأشقياءُ . وفي مواضع في القرآن العظيم مثل هذا كثير ، كقوله : ﴿فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ فكان أن أحلَّ الله بهم بإرادته بما أحبوه هم لأنفسهم ، ومثله أيضاً قوله سبحانه : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فلم يكن إزاغة الله قلوبهم حبّاً في إزاغتها ـ تنزَّه الله عن ذلك ـ بل كان عقوبةً ، استجلبوها مختارين لا مكرهين ، والله سبحانه يقول : ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟﴾ .

ومعنى قوله سبحانه ﴿أمرنا﴾ إما أن يكون ، أكثرنا المترفين ، حتى صار الترف هو السِّمَةَ الظاهرة الغالبة تجري في

الناس ، وإما أن يكون أمرناهم بالطاعات والبعد عن الآثام والمنكرات ، فأعرضوا واستكبروا استكباراً ، وليس هناك ما يمنع أن يكون المعنيان مرادَين فيها ، حتى لكأنَّ الترف لغلبة ظهوره في الناس ، أمسى هو الرداءَ المقبول الحسن ، الذي لا يُرغب سواه ، ولم يبق لغير المترفين مكان يُرون فيه على إنكار ما عليه المترفون الباذخون ، الذي شاع ترفهم شيوعاً مُروِّعاً ، وصار داءً لا ينفع فيه دواءٌ ، ولا يُرجى منه برءٌ ولا شفاءٌ . هنا ﴿حق عليها القول﴾ وحتى كأنّ حياة الناس صبغت بصبغة الترف ، فصارت لباساً للفقراء والأغنياء ، يزيد بها الأغنياءُ ترفاً واستكباراً ، والفقراءُ فقراً وشقوة . فأنزل الله بها الدَّمار والعذاب ، وأحلَّ بهم الهلاك والبوار .

٣٨- الدّمارُ المحمودُ !!

وقد منع الله هذه الأمة ـ رحمةً لها بنبيّها محمد عليه الصلاة والسلام ـ العذابَ بعامة ، تُستأصَل به شأفتها ، وتَمَّحي به آثارها ، ولا يبقى إلا ما تكون فيه العبرة بذكرها ، لكن : من الدَّمار دمارٌ ، يكون دمار الاستئصال والمحو شيئاً يُحمد ويُحَبُّ معه ، إذ أين هذا الدَّمار من دَمار الأمن ، ودمار العافية ، ودمار القلوب والعقول ، ودمار الصلاح والتقوى ، ودمار القوة ، ودمار الأخلاق والأنفس والأرواح؟ هذه وغيرها

من أنواع الدَّمار ، تتمنى المجتمعات التي تحل بها أن لو كان أدركها دمارُ الاستئصال والفناءِ .

٣٩- متى يزدادُ الدّمار؟!

وتزداد هذه الأنواع من الدَّمار سوءاً وشدةً ، حين تصبح بشيوعها ـ على وفرة الرضا والقبول لطغيانها ، وغمرة الأسباب الآتية بها واعتيادها ، وولادة الأجيال في ثنياتها ، فيرضعون لبنها ولبانتها ، وهم لا زالوا في غيابات الطفولة ، وهذه الحال التي عليها الأمة اليوم ، والسامع فيها راءٍ ، والرائي لها سامع ، وصوت الإصلاح لم يعد يُسمع ، وكلمة الإصلاح تقطعت حروفها ، وغاصت في الأرض معانيها ، وأوْلَجَها أهلُ الفساد والإفساد موالج السوءِ ، وقعدوا لها بالمرصاد ، يحصون عليها ـ في سرٍّ وعلانية ـ كلَّ ما يكون من فرح تناله ، أو حزنٍ يسرع إليها ، حتى غدت على وادٍ لهم ، لا تكاد تأتي إلا بالذي يريدون ويحبون !!

٤٠- المترَفونَ يريدونَ الترفَ نمطاً حياتيّاً !!

وقد أمعن أهل الترف في ترفهم ، إمعاناً نسوا معه أنَّ في النّاس فقراً مدقعاً ، يغدو ويروح فيهم طولاً وعرضاً مختالاً على جلود الفقراء المخرَّقة ، وأعظُمِهم المهشَّشة ، على أنين الحرمان الفتَّاك ، وأزير الفقر القابع في ضلوعهم التي استدقَّها الجوع

الراعش . وصار الترف مطلباً حياتياً ، يشتد في السعي إليه ، والإصرار على الإبقاء عليه ، ونشره في الناس ، القادرون على جعله النَّمط الحياتي الأمثل في الدنيا ، وليس يخفى أن هذا النمط لا يتحقق إلا بتحقق قدرة ماديَّةٍ واسعةٍ ، يحرص المترفون الذين استمرؤُوا طعم الترف ، وصار عادةً فيهم على الإبقاء على أسبابه الرافدة ، وطرائقه الجالبة ، لئلا يضعف أو ينتقص عطاؤُه ، وهذا الحرص في ذاته فتنةٌ طاغيةٌ ، تزيد من طغيان الترف ، وتدمير ما قد يؤمَّل في عقر شيءٍ من الأسباب التي يُعوَّلُ عليها في إنهاك التَّرف وإخراجه من بين ظهراني الناس ، أو التخفيف من شدته فيهم .

٤١- المجتمعُ العاجزُ يُولد فيه الإنسانُ المدمَّر

وإن كانت الأمة قد حُميت من تدمير الاستئصال والفناء بالكلية ، على نحو الذي كان في الأمم السابقة ، وأصابها من التدمير الآخر ما أصابها ، فإن الناس من هذه الأمة يولدون في أحضان هذا الدَّمار ، أي أنهم يولد الواحد منهم مدمَّراً ، في خلقه ، وعقله ، وعافيته ، وأمنه . . . إلخ ، ومن يولد في كل هذا من أنواع الدمار ـ والترَّف جاثم فيها ، لابث على أرضها ، محيط بكل أقطارها ـ فهو مولودٌ مدمَّراً ، ليس له من بنيته ما

يطمعه يوماً أن يذهب عنه نوعاً من أنواع هذا الدَّمار ، لأنّ هذه الأنواع قد أحلَّته في العجز ، وأمكنت منه أسبابه كلَّها ، وهذا شأن الناس جميعاً ، فغدوا كلُّهم في مجتمع ليس فيه إلا العجز ، وأسباب العجز ، ومظاهر العجز ، وخفايا العجز ، فماذا يؤمَّل ممن يولَد مدمَّراً في مجتمع سمته العجز ، وليس فيه إلا أسبابه ودواعيه؟!

٤٢- الطائفة المنصورة تدفعُ جزءاً من الترَف

نعم قد تنجو من هذا الدَّمار ، جماعةٌ من الناس ، أبقى الله سبحانه فيهم ـ باصطفائِه ورحمته ـ من القوة والمنعة ما يدفعون به هذه الأنواع من الدمار تحقيقاً لمراده سبحانه ، في أن تظل طائفةٌ تقوم بأمره ، وتبيِّن للناس الدِّين الحقّ ، وتقيم فيهم الشريعة العدل ، وتحفظ عليهم عقيدة التوحيد الصافية الواضحة : «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك» ، لكن هذا الدفع ليس الدفع الذي يأتي على الترف المزمن الرابض بين ظهراني الناس بكل صوره وألوانه ، مع ما يصاحب الترف أو يخرج منه من وهنٍ وبلاءَاتٍ مختلفة الألوان ، لا يصبر عليها إلا مثلها ، لكنه الدفع الذي يبقى

شاخصاً في عيون الناس وقلوبهم ، يذكِّرُ من نسيانٍ ، ويقيل من عثرة ، ويُنْهض من قعود ، ويؤَمِّل من قنوط ، ويُرَجِّي من حرمان ، ويضع من بلاءٍ ، ويوقظ من غفلة ، ويخفِّف من شدة ، حتى إذا ما جاءَ أمر الله سبحانه ، تجلَّت رحمته بقوادمها وخفاياها ، وتضامَّت بشرياته بظلالها ، وتحقَّق وعده بصبرهم واستقامتهم على أمره ، ولزومهم نور هداه ، فكانوا الرجاءَ المنظور ، الذي ظلَّ يلوح للناس في آفاق الحياة ، حتى كان الإذنُ له بالظهور ، فظهر في أبهى حُلَّة ، وأحسن صورة .

٤٣- الترفُ صورةٌ كبيرةٌ من صُوَرِ الحرمان

والترف في حقيقته صورةٌ كبيرة من صور الحرمان ، فالقائمون فيه يُحرَمون لذَّةَ العيش بعد أن أُمرعوا فيها ، ولا يذوقون لذة طعوم الأشياءِ التي أترعوا فيها بالترف ، وقد صاروا من بعدها إلى عادات تناثرت في أرجاء حياتهم ، وقد يئِسوا أن تعود إلى ما كانت عليه من قَبْلِ تناثرها وتفرُّقها ، وتطويقها بالملل الملول المتضخِّم ، إذ ليس من شيءٍ في دنيا الناس ، من بعد أن يُتداول فيهم زماناً ، ويتقلَّب بينهم على نحوٍ ما ، ليصير من بعدُ إلى عادةٍ أو ما يشبهها ، إلا ويأخذ مأخذ الرفض والدفع ، ولو عجز الناس عن التخلِّي والنأي عنه بالاعتياد ،

حتى وإن كان ضاراً كله أو في بعضه ، وليس من شيءٍ ينشأُ من الترف ، إلا وهو قد صاحبه شرٌّ ، يقوى ويشتد بأسه كلما أصاب منه الناس ، وليس يصلح أمره بشيءٍ ولو يسيراً ، لأن من طبيعته الدَّفق والاستطالة والنماءَ إلى الأسوأ ، فليس يستغرب من بعد ، إذا قعد الترف بأهله ، الذين صار الترف فيهم إلى ما صار إليه ، من صور الحرمان ، والعجز ، أبدع القرآن العظيم إبرازها على نحوٍ لا يحسن بالمرءِ ، أن ينظر في غير حروف الآية ، أو أن يتملَّى غير العاقبة التي يضعها الترف في أيِّ مكان يتغشَاه ؛ وذلك قوله سبحانه : ﴿وضربَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئِنَّةً يأتيها رزقها من كل مكانٍ فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ ، وأول ما يخطر بالبال أن أسوأ ما يكون الكفر بالنعم ، هو أن تصير بأهلها المنعَم بها عليهم إلى قبضة الترف الأكول ، فيذهبَ بأمنِها ، واستقرارها ، وهناءَة عيشها ، وتبقى هذه الصورة المأساة التي يرسمها هذا الترف الأكول رابضةً في تحفُّزٍ عابسٍ ، على وجه كلِّ واحدٍ في هذا المجتمع المترف أو ذاك ، وضراوةٍ مضطربةٍ تجوس صدورهم ، تدفعهم دفعاً شديداً إلى الهلاك المفند ، وهي ـ عياذاً بالله ـ عاقبة السُّوأى ، التي لا محيد عنها .

٤٤- الترفُ هو الكهفُ الذي يأوي إليه كلُّ شرّ

ومن ينظر متأمِّلاً متدبِّراً التَّرف ، وما يُحدث من آثار سيئَةٍ ، يعلم يقيناً أن التَّرف ، هو الكهف الذي يأوي إليه كلُّ شرٍّ وسوءٍ يُركضُ الناسَ إليه في لهاث شديد ، يطمّعهم في ضرَّائِه وضراوته ، ويؤمِّلهم في كلِّ ما يخفيه لهم من قبائح ، حتى إذا ما خالطوه ، أنالهم منها ما لا يملكون من بعده حيلةً يأتونها ، ولا يهتدون إليه سبيلاً يسلكونها ، حتى إذا ما فزّع عن قلوبهم رأوا أنفسهم في يحموم البلاء ، فنكسوا على أدبارهم ، لكنهم ظلُّوا لابثين في ذلك اليحموم ، أثقلهم الترف ببهظه ، وأقعدهم بعجزٍ لا يُرام للإزالة إلا بعجزٍ مثله ، فأنَّى تكون لهم نجاة؟

٤٥- الترفُ داءٌ عُضالٌ ومرضٌ فتّاك

والترف داءٌ عضالٌ ، يتنزَّى بالعدْوى الكاشرة الباهظة ، يُسارع بالفتك الضاري ، لا يقع على أرض خصب إلا محا خصبها ، ولا يدخل داراً إلا وأهلك أهلها ، ولا يمس طائفةً إلا وأرداها ، ولا يقترب من قوة إلا وفتَّتها ، ولا يكون له بعض مُقام في ماء قوم إلا وغوَّرها ، ولا يحلُّ في مدرجة علم إلا وعمَّاها ، ولا يقع على سهلٍ إلا ووعَّره ، ولا ينتاب حاضرةً إلا وبوَّأها

سوءَ العذاب ، ولا يحيط بجماعةٍ إلا وهَدَّم بُنيانها ، ولا يلامس أمن قرية إلا وفَزَّعها ، ولا يبصر بزرعٍ ممرع إلا وجعله عصفاً مأكولاً . فهلاً رحم أهل الترف أنفسهم فلم يأذنوا لترفهم أن يهلكهم ويمزِّق أبشارهم ويفرِّق شملهم؟! فإنَّ الله سبحانه لم يأذن لشيءٍ من الشر مما خلق ما أذن للترف أن يُحِلَّ به من سوءٍ وفسادٍ وبوارٍ من فوق المترفين ، ومن تحت أرجلهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فلا أمن ، ولا عافيةَ ، ولا سَلام .

٤٦- لم يخالط الترف حياة النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم

وقد عهد الله للترف أن لا يداني حائط النبي ﷺ ، ولا حوائط أصحابه رضوان الله عليهم ، وأن لا يكون له مساسٌ بهم ، وأن لا يخالطَ حياتهم بأقلَّ أقلِّه ، وأن يكون الزهدُ غرَّة دنياهم ، وسمت وجودهم ، ورِبْعَ استقرارهم ، فعاشوا أئمةَ هدى ، وجُندَ حقٍّ ، وروَّاد أمنٍ ، وسعادةٍ ، وخلود ، يهدون إلى الخير ، وإلى صراط مستقيم ، في الضراءِ والبأساءِ ، والسَّراءِ والنَّعماءِ ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فجابوا الأرض وعمروها ، وعَلوَا بعقولهم ، وقلوبهم ، وأبدانهم فوق الدنيا وهم فيها ، وغرسوا على وِهادِها ، ووديانها ، و بحارها ، وجبالها ،

وسهولها ، وشعابها ، ويابسها ، وأخضرها للناس ، علاماتٍ يهتدون بها لا يضِلُّون ، وصوىً يأوون إليها لا يخافون ، وغراسَ حُبٍّ وعلم ينتابونها لا يتباغضون ولا يجهلون . ولن يكون لهذه الأمة في آخرها من الصلاح والرشد والاستقامة على الأمر إلا بما كان لأولها ، ولم يكن صلاح لأولها إلا بالأخذ بالدِّين كلِّه ، والصدِّ عن الترف ودواعيه وأسبابه ، فإن مخاطر الترف مخوفة ، وعواقبه وخيمة ، والسلامة كل السلامة في الجفاءِ عنه ، وتعرُّف الطريق الذي لا يقرِّب منه ، ولا ينتهي إليه ، ولا يرغِّب في السعي نحوه .

٤٧- الترفُ يمتدّ شرُّه إلى الفقراء، ولا يصرفهم عنه إلا الاقتداء بالرعيل الأول

ومما ينبغي أن نعلمه أنَّ الترف لا يقف شرُّه عند حدود المترفين المخالطين ، القادرين على امتطاءِ جياده ، والنَّوم على فراشه ، والرجع بنايه ، والرقاد على وساده ، بل هو ولا بدَّ مادٌّ ذراعيه إلى غير هؤلاءِ المترفين ، فيحوز منهم الكثير الكثير من الذين لا يجدون فيهم إلا التَّحسُّرَ على ما يرون من حال أولئك المترفين المغرقين السابدين ، ولكأنهم يرون في أنفسهم من وهم يلبسهم أنهم قادرون على أن يكون لهم مثل ما لأولئك

المترفين ، لكنهم وقد لطمتهم الحقيقة التي هم عليها ، من سوء الفقر وشدة الحال ، ولا زالت الطُّلَعَةُ بهم تؤزُّهم أزّاً شديداً ، إلى ما أترف فيه أولئك ، فأين يذهبون؟! وكيف يسلكون؟! وأيَّ درب يأتون؟! إذاً فلا بدَّ لهم من حيلة يأتونها ، وإن كان يكون لهم ما يكون ، فكان منهم أن أمكنوا لفتنة المال من نواصيهم ، تقودهم حيث تشاءُ ، وتجري بهم في الصُّعدات ، وتهبط بهم في كل سهلٍ وحزن ، وتفرحهم بالحرام من قبل الحلال ، وتزيغ بهم عن سواء القصد بالكسب ، حتى لا يجدوا في صدورهم حرجاً مما أنْعَمَت عليهم به هذه الفتنةُ الراغمة ، من حرام الكسب ، وضرَّائها الغموس ، ولو أنهم أتوا الأمر من بابه ، لرأوا في شخص رسول الله ﷺ ، المثل اليُغنيهم عن النظر في سواه ، فيزهِّدهم في كل شيءٍ ، يصرفهم عن كل ما يُهيج فيهم رغائب السوءِ ، ثم لا يجدون إلا الطمأنينة التأتيهم إلى موارد الزهد ، وتوسُّمَ الخير في كل ما تقع عليهم حواسُّهم ، فإن هم أصابوا قليلاً من حلال ، قَنِعوا به ، وآواهم إلى مثله ، وكفاهم عن الحرام كله ، وإن بدا لهم أنه ـ أي الحرام ـ يُسْعِدُ أهله ، ويكونون به وفيه على أوفر حظٍّ من السعادة ، وهناءَة العيش ، لكن الحال التي يعيشون فيها ، وهي لا تُرى ، ولا تُسمع ، ولا تُلمس ، لو

كان لهم معرفة بيِّنَةٌ بها ، لعلموا أن ما فيه أولئك من ضنك العيش وسوءِ الحال ، لا يحسدون عليه ، ولابتغوا كلَّ سببٍ يوثقون به أنفسهم لِلُّبْث بها على تلك الحال ، التي انتفى بها عنهم ضنك العيش ، وسوءُ الحال التي شقي بها وفيها ، أولئك الغارقون في لجة ترفهم ، ويكفيهم من السعادة أن يروا رسول الله ﷺ ماكثاً فيها غير راغب عنها ، ولسمعوا كلمته الجليلةَ المضيئةَ : «اللَّهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين» . فتكون هي الرجاءَ ، الذي يملأُ آفاق الحياة عليهم ، نعيماً وبهجة ، لا يبغون عنه حولاً ، وأيُّ نعيم أبهج وأبهى من النعيم الذي أصاب منه رسول الله ﷺ ، وأناله أصحابه رضوان الله عليهم في حياته ، ومن بعد موته ، فكانوا به ومن مثله ، في عصفٍ وريحانٍ وجنَّة نعيم ، فما يكون أسعد الأمة في كلِّ أجيالها ، وجميع أعصارها ، إن هي أخذت سمت القرون السابقة ، وكانت على هديهم ، وعلى ما فُضِّلوا به على العالمين في زمانهم ، ومن بعدهم .

٤٨- واجبُ العلماء التحذيرُ من الترف

والمستقرئُ حال الأمة في أرجاءِ أرضها ، يعلم أن أخطر الأدواء ، وأشدّها فتكاً بها ، هو : الترف ، وما لم تُملصْ نفسها

من قبضته القاسية ، فسوف تبقى في مكنون العيش الضنك ، لذا ؛ فإن حقاً على طائفة العلم والصلاح ، أن تندب نفسها في الترف ، تحذيراً منه ، وبياناً لآثاره وأخطاره ، وعواقبه ، وتذكيراً بالأمم والأقوام ، الذين غلبت عليهم شقوة الترف ، فأوردتهم موارد السُّوء والعطب ، وأن يكونوا هم في أنفسهم القدوة الحسنة ، التي تروق في أعين الناس ، فتحملهم على قبول ما يقال لهم ، واستحسانه ، وتقديمه على سواه مما يناقضه من حال سائر الناس ، ويشاع فيهم .

٤٩- رفضُ الصحابة الترفَ مع توافر الأموال

ويجب أن تكون حياة الصحابة رضوان الله عليهم هي المثل الصائِبَ الماثل في عيون الأمة ، القائِم في قلوب أفرادها ، الساعيَ بين يديها ، في كل زمان ، ومكان ، فكان فيها الأغنياءُ الذين يملكون الوفير من المال ، ويحوزون الكثير من قناطير الذهب والفضة ، ما يغري بامتطاءِ سنام الترف ، بيد أنهم ـ وقد علموا ما علموا من بوائِق الترف وما أجلب على الأمم من سوءِ عواقبه ـ فكانت دُورهم ومساكنهم ، كسائر دور الصحابة ومساكنهم ، لا تعرف دار عثمان رضي الله عنه من دار بلال ، ولا دار طلحة من دار خُبيب ، وكانوا يخشون أن يقال لهم يوم

القيامة : ﴿أذهبتم طيِّباتكم في حياتكم الدنيا﴾ ، فذهبوا يلوذون بأكناف الفقراء والضعفاءِ ، ينفقون عليهم فضول أموالهم ، فيبارك الله لهم فيها ، ويضعِّفها لهم ، فلا يجدون أرفق بهم من أموالهم ، ولا آمن عليها من البذل والإنفاق منها ، ولا أمنع لها من الجود بها ، ووضعها في مظانِّها ، وبذا كانت لهم القوامة عليها ، فهي في أيديهم ، ولا مأوى لها في قلوبهم ، مثلهم في هذا نبيُّهم ، فلما قُبِض إلى الرفيق الأعلى ، ظلَّت صورته المشرقة الوضيئة البهية تحدِّثهم بذكرها ، ونبلها ، واستقامة أمرها ، وحضورها الدائِم فيهم ، بكلِّ ما رعتهم به وعلمتهم إياه ، وأثبتته في صدورهم ، وحفظته أمانةً في قلوبهم ، إلى يوم يلقون ربَّهم في عرصات الآخرة ، يوم العرض الأعظم ، فتلك أمةٌ عرفت ربَّها ، باتباعها نبيَّها وقَفْوِها أثره ، قد خلت ، وما كان لها من فضل شهد لها به صلوات الله وسلامه عليه : «خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» . وصلاح الأمة في زمانها هذا لا يكون إلا على السبيل التي سار عليها السابقون الأولون ، في جليل الأمر وصغيره ، كما أمر ربنا بذلك : ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَة﴾ .

٥٠- الترفُ يغرسُ الحقدَ في نفوس المحرومين

ومن الضرَّاءِ الباهظة المنهكة ، التي تلمُّ بالأمَّة ، ما يلحق بالمحرومين الذين يتجرعون غصص الحرمان ، ويذوقون شظف العيش ، ويتدثرون الفقر في صيفهم وشتائِهم ، فماذا يكون لهؤلاء ، وهم ينظرون إلى المترفين يتمنَّون أن يكون لهم شيءٌ مما يفضل من فتات موائِدهم؟ هل يكون منهم إلا البغضاء ، تمزِّق غشاءَ الحبِّ ، وتقطِّعه حتى يكون أشلاءً متناثرة ، لا يرجى لها إلا زيادةٌ في التناثر والتقطيع ، ثم لا يكون يخلفه إلا الحسد القابض الباسط ، يقبض أحد جناحيه إليه بالسوءِ والفحشاءِ ، والآخر يبسطه بالأذى والضُّرِّ ، في سرٍّ متكتِّم وخفاءٍ محاذرٍ ، يراوده الثأرُ عن نفسه ، أو هو يراود الثأر عن نفسه ، ليوقع ما تُحدِّثه به نفسه من الأذى والضرِّ ، بواحدٍ أو بأكثر ممن أُغرقوا بالترف ، ممن يجد السبيل سهلاً به إليهم . ولنتصور مجتمعاً ، التقت على أرضه بوائقُ الشر والفساد ، وغدا موسوماً بالكراهية والفحشاءِ ، ثم من بعدُ الدَّمارُ والهلاكُ ، وذهاب الخير ، وغيوض البركة ، وتماوجُ الفساد بكلِّ صوره وأشكاله ، وألوانه ، في ثمالات الصلاح ، التي اسْتَرَقَتْ بعضاً من الظنون الضعيفة ، لتكون شهوداً ماثلةً في الناس على سلطان الترف الجائر ، وآثاره الجائعة المخيفة .

٥١- أسوأ ما يميّز المترَفين: الظلمُ وازدراءُ الضُّعَفاء

وقد سبق في ثنيات كلامي ، أنَّ الترف هو المأوى الأمين ، بل القرار المكين لكل فسادٍ في الدين والدنيا ، بل إن اجتماع الفساد بكل صوره وأشكاله ، لا ينذر بحضوره وبقائه في الناس ، ورضاهم به ، وقبولهم إياه كالترف ، فهو الذي يزيِّنُ لأهله الظلم في أعلاه ، وهو الشرك ، وفي أدْناه ؛ وهو الذي تستباح به الحرمات ، وتثقل به الآصار ، ويبرم به من الطاعات ، وتساغ به المعاصي والمنكرات ، وتستجلب به الذنوب والآفات ، وتستطابُ به السيِّئات ، ولا تُستوَغر فيه الطريق إلى المحصنات ، وأيسر ما يكون الظلم وأحبُّه وأرغبه حين يمدُّ الترف رواقه ، وتشيع حُمَّاه في صدور المترفين ، وأسوأُ ما يميز المترفين من سواهم ، ويعرفون به في الناس ، الاستكبار عن الضعفاءِ ، واستحقار شأنهم ، والصَّدُّ عنهم ، وازدراؤُهم ، وتقديم ذوي النباهة والنبالة في الناس عليهم ، حتى لكأنْ لا يكون لهم بين الناس شأنٌ أو حالٌ يُذكرون به ، والويل لأُمةٍ لا يرحم ضعيفَها قويُّها ، ولا يُشام الخير لها إلا في أطماره ، ولا يُهتدى للحق إلا في أسماله .

٥٢- إرادة الخير أقوى من بأساء الترف

وهذه ثلاثٌ أخرى سالبةٌ من قوانين الله في كونه ، يستعدي الناس بها بعضهم على بعض وهي : (الحقد ، والظلم ، وازدراء الأقوياءِ الضعفاءَ) ، يُستَلُّ بها الإحسان من قلوب العباد استلالاً ، وتُهصَرُ بها أماليد المودة إلى غير وجهتها ، ويُستنبط بها يحموم ماءِ البغضاءِ ، ويُستأثر بها النفاق على الإيمان ، وتجري الأهواءُ بها في صدور الناس على سجيَّتها ، وتُستراد بُؤَرُ الشر في كلِّ حين بإذنٍ من صانعيها ، وتتساعى أفاعي المكر والخديعة بأشدِّ سمومها فتكاً ، وتذوبُ الفضائل في حميم سعيرها ، ولا نجاة لأحد يدانيها ، أو يمسُّ جزءاً منها ، مسَّاً شديداً أو خفيفاً ، إلا وأدركه شيءٌ من أذاها ، إلا أن يكون ما كان منه ، كان على غير قصد إليه ، فذا يُعْذر بعذره ، ويُكفُّ عنه سوءُ مسِّه ، ولا يضيق به سَعْيُه ، وإن ساعاه شيءٌ من الإعنات ، فكأنما يقول له : مهلاً ، فكم وافيت أهل الدَّعة ، فردُّوا أيديهم في أفواههم ، وصبروا على ما بلوتهم به ، ولم يجدوا في أنفسهم إلا الصبر على ما أُعنتوا ، فكانت لهم النجاة ، ثم جيءَ إليهم بالإنابة ، وصاروا على ركوة آمنةٍ ، فاستقوا بعذبِ ماء بئْر صافية ، وسقوا ، وأرووا أنعامهم ، وزرعهم ، وكانت منهم عزمةٌ راغبة ، أن ينيلوا

الراغب الصَّادي ، ويُترعوا رواياهم ، ويفرغوا على سموم الترف من بئْرهم هذه ، ما يطفئُ لهيبه ، ويَخفِّفُ من وقدةِ حرِّه ، ويحني من أزيز توهُّجه ، حتى إذا فُزِّع عن صدورهم وأُخِذوا بالأمر الوسط ، وذكروا في أنفسهم أن إرادة الخير فيهم ، لا تُعقبُ إلا البرور والفضل ، فتخفَّفوا بها من بأساءِ الترف وضرَّائه .

٥٣- عودة إلى قانون الظلم

ولنتبع الأول من تلكم القوانين الذي أتينا عليه ، وعلمنا ما علمنا من ضراوة فتكه ، وقسوة لأوائِه ؛ وهو الظلم ، والظلم هو الترف ، ثم لا يكون من الناس إلا الفرار إليهما معاً ، فانظر من بعد إلى سوء العاقبة .

٥٤- الظلمُ والترف وجهان لعملةٍ واحدة

والظلم هو عين الترف ، والترف هو عين الظلم ، بيد أنّ الظلم أوسع دائرةً من الترف ، ويمكن أن يكونا معاً وجهين لعملة واحدة ، كما يقال ، ولم تعرف البشرية في حياتها كلِّها ، مذ كانت ، وإلى أن تقوم الساعة ، نمطاً من أنماط الشر والبلاءِ ، مثلَ الظلم ، ويكفي العاقل ليحيط علماً بالظلم ، ودواعيه ، ومقاصده ، وأسبابه ، وآثاره العاجلة والآجلة ؛ أن يذكر في نفسه قول النبيّ ﷺ : «الظُّلمُ ظلماتٌ يوم القيامة» ،

فـأيُّمـا بلاءٍ يعظمُ في نفـسـه ، لا يدرك أن يكون في أنزل درجـات الظلم ، ذلكم أنه وهو في أشـد مـا يكون حلكةً ، هو المنزل الذي يتساعى إليه الشّرُّ القمطرير ، بكل ألوانه ، وصوره ، وأحجامه ، ليأخذ كل منها مكاناً له ، من قبل أن تُمْلأ كلها ، فـلا يعـودُ في وسـعـهـا إلا المغـالبـة ، ثم لا تلبث أن تُنْكأ بجراحاتها الجافة ، فيسيل قيحها ودمُها ، مزيجاً كريهاً تعافه الأنفس ، وتنفر منه العافية .

٥٥- الظلم أصلُ الذنوب جميعها

وقـد تنازع الناسُ الظلمَ قـديماً ، فـمنهم المقلُّ منه ومنهم المكثر ، وكلُّهم يعلمون أنَّ الظلم شيءٌ تأباه الفطرة ، ولا ترضاه ، وتَشرد منه ، وتُقبل إليه في وقت ، فما يُنتجه من نفع يُؤْتيهم إليه ، وما يُحدثه من ضُرٍّ يصدُّهم عنه ، لكنه يبقى يغريهم في الحـالين به ، على علم الظالم ، أن نفع الظلم مع ضـرِّه هو على مثل حدِّ قوله سبحانه : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ بل ، كيف يقـاس هذا بهـذا ، والظلم هو حـراب المعـاصي كلهـا ، وأصلُ الذنوب جميعها؟ يُعرف هذا إذا عرفنا معنى الظلم ، فهو : وضع الشيءِ في غير موضعه ، المختص به ، إما بنقصان ، أو بزيادة ، أو

بعدولٍ عن وقته أو مكانه ، والظلم يقالُ في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة ، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز ، ولذلك ؛ فإنه يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير ، ومن هنا قيل لآدم في تعدّيه : ظالم . وفي إبليس : ظالم . وإن كان بين الظلمين بَوْنٌ بعيد .

٥٦- أنواع الظلم

قال بعض الحكماءِ : الظلم ثلاثة : الأول : ظلمٌ بين الإنسان وبين الله تعالى ، وأعظمه الكفر ، والشرك ، والنفاق ، ولذلك قال : ﴿إنَّ الشرك لظلم عظيم﴾ .

والثاني : ظلم بينه وبين الناس ، وإياه قصد بقوله : ﴿وجزاءُ سيِّئَةٍ سيِّئَة﴾ وبقوله أيضاً : ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ ، والثالث : ظلم بينه وبين نفسه ، وإياه قصد بقوله : ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ وبقوله أيضاً : ﴿إذ ظلموا أنفسهم﴾ . وإذ ذلك كذلك ، وعطفاً إلى حقيقة هذه الثلاثة ؛ وجدنا الظلم يعود على الإنسان الظالم نفسِه ، فإنّ الإنسانَ الذي يقع منه واحدٌ من هذه الأنواع الثلاثة ، أول ما يكون آتياً الظلم ، فإنما يكون آتيه بنفسه لنفسه ، ثم يكون من بعدُ مُلْبِسَه غيره ، وهذا ما يؤَيِّده مثل قوله سبحانه في غير موضع : ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون﴾ وقوله : ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ .

٥٧- بين الظلم والظلمات

والمناسبة المنعقدة بين الظلم وبين الظلمات ظاهرة لا تخفى ، فالظلمات حين تخيم قِطَعها ، بالتحامها بعضها ببعض ، وتمتد في كل اتجاه ، وقد تآلفت وتماسكت وتضامت ، تهطل سوادها ، فوق كلِّ جزءٍ من الأرض التي تكون من فوقها ، فيكون أعلاها كأسفلها ، وأسفلُها كأعلاها ، لا يُفرَّق بينهما ، ولو أراد إلا أن يفعل شيئاً من ذلك لما استطاع ، وأنَّى له ذلك ، والظلام بتآلف أجزائه ، وقطعه ، وذراته لا يكون إلا شيئاً واحداً ، وقد ملأ الآفاق وغطَّى الأرض ، وإن أراد الظلم أن يخترق هذه الظلمات المجتمعة ، فإنه لن يقوى على اختراقها ، لأنه يبصر بعينين ، أو لأنَّه يَسْمع بأذنين ، أو لأنه يمسك بكفين ، فهو ليس له شيءٌ من ذلك البتَّة ، إذاً : فلكأنما أُودع الظلم حاسَّة خفيَّةً ، لا تُعرف إلا حين يطلقها الظلمُ فجأة ، فتهتدي إلى الجزءِ الذي يوائِمها من تلكم القِطَع الذي تكاثف الظلام بها ، من غير إعياءٍ ، ولا إعنات ، فيغوص الظُّلمُ في الظلمات ، حتى يصير بكلِّ أجزائه وذراته ، جزءاً من ذلك الظلام الواسع الشاسع ، يصغر فيه أو يكبر ، بحسب ما مدَّ

للظلم فيه أو قصر ، فللظُّلمِ حركته المطَّاطيَّة التي يستطيع بها ومعها ، أن يتخذ أشكالاً مختلفة لأحجام والمساحات ، تتكيَّف ضيقاً وسعة ، باختلاف أحجام قِطَعِ الظلم وأجزائِه . وأهلُ الظلم ، الذين صار لهم إلفٌ للظُّلمِ ، وصحبةٌ لا تقبل التّحول أو الانفكاك ـ بما عهد لهم من حسن صحبته لهم ، وحرصه على أن يبقى ودوداً سخيَّاً باسطاً يده عليهم ـ لا يردُّها ، ولا يقبضها ، ما دام له حروف تدلُّ على معناه ، وتهدي إلى مبناه ، وما دام في الناس من يتطلَّع إلى الظلم ، على أنه وسيلة ، يمكن للظالمين بها ، أن ينالوا بها ما تشتهي أنفسهم ، وما تلذُّ لهم بها الأنظار والأسماع والنفوس ، وما دام في الناس من لا يجد له ملاذاً في الظلم إلا في الظلم نفسه ، فانظر إذاً ماذا سيكون مصير المظلومين في حِمى ظلمٍ ، تُساوره نفسُه أنَّ ما عنده من رأفةٍ ، وشفقة ، ورحمةٍ ، لا تكفي مجتمعةً ولا متفرِّقة ، لو اكتنفت المظلومين لساعةٍ واحدةٍ من نهار ، إذ هي أوهامٌ ، التقت على فراغ واسع لا مقامَ لمن يريدُ فيها المقام ، فيبقى الظلم منشباً إرادته القاسية في كل ما حوله ـ وكلُّ ما حوله واقع في وهدة الظلم العميقة المظلمة ـ فكيف تكون النجاة من ظلم ، همُّه أن يبتلع في جوفه كلَّ شيءٍ دونه ، فيزداد ضخامةً وعتواً

واستكباراً ، ويَمدُّ كلَّ ظالم بشيءٍ من إرادته ، قدر ما يقوى الظالم عليه ويطيق ، وهو هو لا ينقص شيءٌ من حجمه وضخامته ، بل إن ما يُظَنُّ نقصاً ، يُعَدُّ زيادة ، والأمر كذلك .

٥٨- مَن هو الظالم؟

ولا بدَّ أن نعلم ، من أن الظالم الذي يستمرئُ الظلم ، ويمسي عادةً لازبةً فيه ، تسكنه بقوة وثبات ، وتغريه بها في نومه ويقظته ، في سرِّه وإعلانه ، في شدته ورخائِه ، يصبح هو نفسه جزءاً لا يقبل إلا أن يكون من ماهية الظلم نفسه ، يشدُّ من أزره ، ويدور معه في خلائِه وملاءَته ، ويألفه الظلم إلفاً كبيراً ، حتى إنه ليعسر على الظلم جداً أن يُعالن عن ذاته ، أو يَستخفيَ عن مضامين الحواسِّ ، إلا وهو معه ، لا يتأخر عنه أو يتقدَّم ، فقد صار الظلم لُحمةً ، والظالم سُدَى ، أو صار الظالم لُحمة ، والظلم سدى ، وإن شئْت قلت : إن الظالم هو الإهاب الذي يسكنه الظلم ، ويحميه من أن ينتقص شيئاً ، أو يعرض له أذىً ، يخفِّف من غلوائِه وإعناته ، والأذى الذي يتأَذْى به أو منه الظلمُ ، هو انتشار العدل ، وحراسة الحق ، وبسط الأمن ، وهذه لا تكون إلا في أكناف الطائِفة الصالحة ، التي أخبر النبي ﷺ بها ، وأنبأَ بصلاح أمر الأمة وديمومته بصلاحها وظهورها .

٥٩- الطائفة المنصورة شوكة في حلق الظلم

ومعلوم بداهة أن هذه الطائفة ، ليس لها القوَّة ، التي تؤَهِّلها لحراسة الأمة ، وحماية وجودها ، بكل ما يكون للدولة التي إن كانت ، كانت هي السقف الحافظ لها من فوقها ، والمهاد الحامل لها من تحتها ، والسور الواقي لها من كل جهاتها ؛ بل تكون هي القوة التي تذكِّرها بالواجب الثقيل ، الذي يرقب فجراً صادقاً ، يطلع فيه على الناس ، يمنحهم الأمل أن سيكون للظلم يوماً ما نهايةٌ ، طرفها في يد هذه الطائفة ، التي ندبها الله على حين عجزٍ في الأُمة ، وغلبةٍ من الظلم ، ووفرة لدواعيه ، واستعلاءٍ لأهله ، بيد أن لها من قوة النفس ، وتماسك الفكرة ، ونبالة القصد ، وسلامة الذات ، ما لا يكون للظلم أمامها قدرة على إذهابها ، حتى لا يعرفها الناس ، ولا يروا شيئاً من الآثار التي تحرزها الأيام منها ، وتبقى قائمةً فيها ، حتى لكأنَّها ـ على قلتها وشوقٍ في قلوب الناس لها ، وحبٍّ لما تُحْدِث في واقعهم ـ ليس شيءٌ مما يضادُّها ، أو ينافِرها ، يُرى إلا وهو على راغبةٍ فيها ، يَودُّ أن لو يكون على التئَام معها ، لا يفارقها ، ولا ينأى بجانبه عنها .

٦٠- نهمة الظُّلم

وللظلم نهمة شديدة البأس ، قاسية المزاج ، تودُّ لو كان كل

شرٌّ في يدها ، وكل خير يكون لها بما هو عليه ، أو يكون شراً يمازج كل جوالب الشر ، وجوالب الإثم ، وكواره البلاء ، وهوامٌّ المنكر ، فتجتمع كلُّها على قلبه ، وقد ألقت بجرانها على شغافه الصَّفيق ، تُمنِّعه ، ويُمَنِّعها ، على تقاربٍ وتباعد ، وتفرُّقٍ واجتماع ، فالأضداد فيه متمازجة على حِرانِ البين ، ونفار التَّداني ، وفرح الجاني ، وحزن العاني ، والظلم في كلِّ حالٍ لا يصلح أن يكون لباساً إلا للمفاخر به وفيه ، وهو الذي تعنو جبهته للظلم ، ويأتيه من كل باب من أبوابه ، ويقاربه في غير محاذرةٍ من عواقبه ، ويُبْهِجهُ إقباله ، ويبئِسه إدباره .

٦١- الحذرُ من صغير الظلم وكبيره

والظلم يُحْذَر من كل مخارجه ومداخله ، ويتَّقى بكل صوره وأشكاله ، وأحجامه ، فصغيره مثل كبيره ، وكبيره على نحو صغيره ، أما الكبير منه فضراءُه عالية السنام ، واسعة الأردان ، وأمَّا صغيره ، فَمُسْتَدْرِجٌ مغرٍ ، يأخذ من يصيبه أخذاً رفيقاً ، حتى إذا أمكنه من نفسه ، وغدا على مدرجةٍ لا عِثار من عدلٍ من فوقها ، ولا شِيةَ من حقٍّ يتحرك من عليها ، استهواه على غاشية كربٍ مُفْنِدٍ ، وحلكة بؤسٍ مُقْعِدٍ ، فإذا أمكن منه ألزمه ثِقْله فأعجزه عنه النَّجاة ، وأزهق فيه وسعه عن

النجاة في أصيلٍ وغداة ، وأبقاه حبيس يأسه ، أن يلقى يوماً من دهره أملاً أو رجاءً في الخروج من محبسه هذا .

٦٢- وجوب الإسراع في قمع الظلم ونزعه من النفوس

ومن وجد في نفسه رغبةً في شيءٍ من ظلم ـ وإن كان في مسٍّ بالأذى لحشَرَةٍ ، أو لدُوْيْبَةٍ ، أو لحيوان ـ ضاراً كان أم نافعاً ـ ، أو لطائرٍ ، أو حتى لمائع ، أو جامدٍ ـ صلداً كان أم ليِّناً ـ فعليه أن يسارع إلى نزعها ، وأن لا يمكِّن لها ولو لثوانٍ قليلةٍ ، حتى لا تجد مساغاً ، لا تُعذَر به ، إن هي استطالت وربت ، فلا أسلم عاقبةً من الظلم ، ولا أهدى سبيلاً للخروج من ضرَّائه ، ممن يعرف الظلم ، ويسرع إلى قمعه في نفسه ، ثم ينأى بجنبه عن دواعيه وأسبابه .

٦٣- الحبّ المتبادَل بين الظلم وبين الشّيطان

وليس أحبَّ للظلم من الشيطان ، وليس أحبَّ للشيطان من الظلم ، فأيُّ ولاءٍ هذا الذي أسرع الشيطان به إلى الظلم ، يقول له في رجاءٍ جمٍّ مثير رغيب : إنك لأحبّ إليَّ من نفسي ، وإني لأعلم من نفسي ، أني أحبُّ إليك من نفسك ، فكلانا

يَنْفُد إلى جوف صاحبه ، بما هو حقيق به ، إنها أعلى درجات الوفاءِ والإيثار ، وكلانا بذلك ومعه ، يعلم أن النار مثواه ، وأنها المأوى الأثير له ، ولكل ما اجتمع لديه من آثام ، تحتقن بكل موجبات البوار ، وجالبات الفساد والهلاك .

٦٤- صنمُ الظلم يهوي، لكنّ معدنه لا يزول

ومن أراد أن يعلم ، كم أدرج الظلم في أكفانه السوداء البالية من ضحايا في الأنفس ، والأموال ، والزروع ، والعمران ، وما خطَّت يدُ العلم على مسار السنين ، وما شادت ذراع الحضارة ، وبسطت ، وألقت على أديم الأرض ؛ فليلق نظرةً سريعة على أيِّ مكان ، استطالت فيه يدُ الظلم ، وعبق في أجوائِه نَتَنُه الكريه ، وتكوَّر في سراديبه مُشاشُ الذُّلِّ ، وتعتَّقت في زواياه قبائح الأخلاق والعادات ، ليعلم كم يخلِّف الظلمُ ـ من بعد ما يزول شيءٌ منه ـ من آثار وعواقب ، يخلف بعضها بعضاً زماناً طويلاً ، يُعدم فيها الأمل بالصلاح والإصلاح ، ويغيب فيها الرجاءُ عن صدور المعوزين الصادين ، وتغور فيها الرؤية الواهنة من جفون المستضعفين المُقِلِّين ، ثم تدور الدائِرة على صنمِ الظُّلم نفسه ، فيهوي بكل قبحه ، وسوئِه ، وإثمه على وجهه ، لكن معدن الظلم لا يزول ، فتبقى جرثومته

تضطرب ، تؤْذن من كان فيه ميلٌ قلبيٌّ إلى الظلم ـ ولو يسيراً ـ أن الظلم يبقى في حواضنه ، يتربص بالغوادي والرائِحات إليه ، يتخيَّر منها ما شاء ، ويمدُّه بكل ما عنده من أسباب النماءِ والبقاءِ ، في ستر وخفاءٍ .

٦٥- الظلم الذي يوقع صاحبه في الكفر البَواح

وأسوأُ الظلم ، وأبشعه ، ما كان يجري منه على قلب الظالم وجوارحه سهلاً محبوباً مرغوباً مستباحاً ، فذلكم هو الكفر البواح الذي لا يجد صاحبه مستراداً له إلا في حمى الدين ، ينيل منه الفرد والجماعة ، الرجل والمرأة ، الكبير والصغير ، في غير خوف من عاقبة ، في دنيا أو آخرة ، ولا يؤْثر في لِياطته نجاةً على هلكة ، ولا يفرِّق بين سلامة منه وبين ضيعة غاصبة ، فهو يمضي فيه مكبَّاً على وجهه ، لا يجد في نفسه حرجاً من ظلمٍ يُصيب به من يشاءُ ، على والجة إثمٍ سالية ، لا يبالي من تصيب ، ولا ما تُحدِثُ فيمن تصيب ، فكلٌّ ما يكون من الظلم ، لا يكون إلا بما يُجمْع الظالم أَمره عليه في نفسه في استخفاءٍ إن كان فيه بقيةٌ من حياءٍ ، أو ثمالةٍ من خوف ، في انكشاف وعلانية ، إن كان قد بلغ في ظلمه حدَّاً استغرقه الظلمُ بكلِّه ، فما عاد يبالى ، أيستخفي من الناس به ، أم

يكاشفهم ، بل إن الظالم إن ساكن الظلمَ أو ركن الظلمُ إليه ، لا يعود يرى في الظلم متعةً ، تستدرجه إلى المزيدِ منه ، وتستهويه إلى الحرص على كل جزءٍ أو قطعةٍ منه أن تفوته .

٦٦- إذا صار الظلم عادة؛ خاصة عند الحاكمين؛ فللظلم ألوان وألوان

ومثل هذا الظلم على نحو ما ذكرنا ، إذا ما شاع ، وأخذ مأخذ الوداد والقبول في الناس ، وأضحى يشبه العادة أو قل صار هو عادة ، فهو بما هو عليه ، لا يُتَحاكم إلا إليه ، ولا يقبل إلا بمثل ما آل إليه ، بل إن المظلوم لغلبة الظلم ، لا يكاد يرى العدل إلا فيه ، ولا يُقْبل على أنه حقٌّ إلا إن وافاه على شدته المودَعة فيه ، فشيوع الشيءِ ، وصيرورته إلى عادة ، يصيِّره حتى عند الشانئيه ، إلى ما صار إليه عند الناس بعامَّة ، وهذا كان في الناس قديماً ، ولا زال ، ويفرض هذا فرضاً ـ إن وُجِدَ من بعد من لا يرضاه وينبغي أن يكون تحولٌ عنه ـ من يمسك عصا الوعيد بيده ، وهذه العصا يتداولها الذين بيدهم ولاية شؤُون الناس وأمورهم ، ويُحسب حسابهم ، ويُخشى بأسهم ، ويُسعى إليهم ، فيكون للظلم ألوانٌ مختلفة عندهم ، يُغرونَ بها عيون الناس ، وأنغام شتى يطربون بها أسماعهم ، لكنه على كل ما

يصير إليه لا يعدو أن يكون ظلماً .

٦٧- ذكرُ الظلم في القرآن الكريم

وليس أبلغ في تصوير عواقب الظلم ، وتبشيع مآلاته السُّوءَى ، مما أُنزل منها على نبينا محمد ﷺ ، الذي أرسله بالهدى والحق والعدل ، ليحكم بين الناس به ، وينفي الظلم عن الأرض ، ويُعلي القسط ، ويظاهر أهله ، من ذلك قوله سبحانه : ﴿ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ وقوله : ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ وقوله : ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار﴾ وقوله : ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ وقوله : ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ وقوله : ﴿إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ وقوله : ﴿إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين﴾ وقوله : ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ إلى غير هذه الآيات ، التي تصوِّر مشاهد الظلم من جوانب متعددة ، وزوايا مختلفة ، وتدع للعقل أن يتملاَّها ، مجتمعةً أو متفرِّقَةً ، حسب طاقته ، بَيْد أنه لا ينبغي أن يُنسى ، أن مشهداً واحداً يكفي لملأِ القلب عظةً وعبرة ، إن كان يُعطى حقَّه من التَّأمُّل والنَّظر ، فكيف لو أنها توبعت جميعاً ، واحدةً تلو الأخرى ، ليأخذ

الناظر المتأمّل قدراً أوفى وأوسع دائرة ، مما لو أنه قصره على مشهدٍ واحدٍ أو مشهدين؟ ومن هنا نجد لزاماً على القدرات الثقافية ، أن تعطي حظاً كبيراً من الاهتمام والرعاية ، للإفادة من تلكم المشاهد والصور التي أودعتها آيات القرآن العظيم ، الواقع المنظور ، والمقدَّر المأمول .

٦٨- عزاءٌ للمظلوم

واحسبني ـ أنني ـ وبعد هذا التفصيل الكاشف الموضِّح ، لست في حاجةٍ إلى التعريف بمسالك الظلم التي عسفت بأهل الظلم ، وأولجتهم موالجه المظلمة الراكنة ، وأولعتهم بمزيد من الظلم ، وقد رغِد به عيشهم ، ولذَّت به حياتهم ، وصاروا في أكنَّةٍ غواشٍ ، لا يبغون عنها حولاً .

وأحسن ما يكون من عزاءٍ للمظلوم ـ وقد صار إلى حالٍ لا يُرى فيها الأمل ، إلا كما يُرى البرقُ الخالب السريع من وراءِ الأفق البعيد ـ أن يستذكر قول النبي ﷺ : «إن الله ليمهل الظالم ولا يهمله حتى إذا أخذه لم يفلته» ، وقوله أيضاً : «ليس بين الله وبين دعوة المظلوم حجاب» ، هذا إلى ما يفيض الله على المظلوم من خير قد يراه ظاهراً عليه والناس لا يرونه ، يُغَشِّيه بالسَّكينة ، ويُرَوِّي قلبه بالطُّمأنينة ، ويسبغُ عليه من نور

حبِّه ما ينسيه النقصَ في المال والنفس والثمر ، وقد يكون هذا الخير ، لا يراه هو ، كما أن الناس لا يرونه ، يشبه النسيم ، يلامس الوجه ، في رقَّةٍ ولذَّة وفرح ، ويملأُ الصدر متعةً وشوقاً إلى شيءٍ مجهول ، يكبر ويكبر ، ويمشي في رُخاءٍ عذبٍ مع أيام العمر وسنيه ، لا يدري مأتاه ، ولا يعرف له غاية أو مقصد يتجه إليه ، لكن شيئاً يبدو تارةً متراكماً مجتمعاً ، وتارةً متفرقاً جميلاً ، وتارةً يمتد طولاً ، وتارة ينبسط عرضاً ، لكنه في كل صورة وفي كلِّ شكلٍ يبعث في القلب الرجاءَ الكبير الواسع ، وهو شيءٌ من معنى قوله سبحانه : ﴿إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وهو عاجل الأجر ، أما ما سيكون من بعدُ يومَ الجزاءِ ، فهو شيءٌ من معنى قوله سبحانه : ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرَّة أعينٍ ، جزاءً بما كانوا يعملون﴾ .

٦٩- ليس للمظلوم أنجع من الصَّبر

وليس للإنسان العاقل ، الذي يرى مواقع الظُّلم ، إلا أن يكون له اقتدار على حبس نفسه بين أطياف الصبر ، أو أن يكون في حرِّ الصيف مستظلاً بقبَّته ، أو أن يكون في قرِّ الشتاءِ ، مستدفِئاً بحلَّته ، فيصيب من الخير ، ما لا قِبَل له به برفعه ولا بوضعه ، فيرسل بصره في كل اتجاه يومئُ إليه

بهمسه ، ليمنح من كان يحب في رغبٍ ورَهَب ، أن يصيب شيئاً أو بعض شيءٍ مما أفاءَ الله به على الصابرين .

٧٠- مآلُ الظلم: بطشٌ يأتي بغتة

أما ما يكون من مآل الظلم ، يأتيه في رونق ضحىً والناس يلهون ويلعبون ، أو في غسق الليل والناس نائمون غافلون ، ولا يدرون متى ولا كيف يكون ، فهو مآلٌ له سلطان أقوى من كل سلطان ، وأشد رهباً ، وأعنف بأساً ، يضع كل مرتفع ، ويُذْهب كلَّ منخفض ، ويسِّوي كل ناتىءٍ ، ويغوِّر كلَّ منبسط ، ويزلزل كل قويٍّ ، ويمحو كلَّ ظاهر ، ويُصمُّ كل سامع ، ويُعمي كل بصير ، ذلكم أنها المآل الذي صنعه الله جزاءً عاجلاً وفاقاً ، ليد الظلم الباطشة ، التي تريد أن تبقى عاليةً بقدرة بطشها ، وشدة وطأة بأسها ، وهي غافلة عن وعيد الله سبحانه في مثل قوله : ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ وقوله : ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هم أشدُّ منهم بطشاً﴾ وبطش الله عز وجل يأتي بغتة ، وعلى غير انتظار .

٧١- لا يُدفع الظلمُ إلا بالعدل، ولا يُنهكُ العدلُ إلا بالظلم

وقد علمنا ، أن الظلم يسرع في زوال الدُّول ، وإفناءِ النعم ، وإن كان أهلها وحماتها مسلمين ، كما علمنا أيضاً ، أن العدل

يدرأ الدَّمار ، ويحمي الدُول والنعم من الزوال والفناءِ ، وإن كان أهلها وحماتها كفَّاراً وغير مسلمين ، فانظر إلى آثار رحمة الله وطول بقائها في الناس بالعدل ، وإلى آثار عذاب الله في الناس وطول بقائه بالظلم ، ولا يُدْفَع الظُّلمُ إلا بالعدل ، وحبه ، وإيثاره على الظلم ، ولا يُنْهك العدل ويُستباح حماه إلا بالظلم ، ومدِّه بأسباب البقاءِ والحياة .

ومن أراد أن يبصر بهذه الحقيقة ، ويعرف بشاعة خطرها ، فما عليه أن يجاوز واقع الأمة المنظور ، فيغنيه عن كل ما هو خفيٌّ غير مجهور ، وهو مبثوث في كل بلاد المسلمين اليوم ، بما عهد الله لهم ، أن يحموا تلك النعم الكثيرة ، التي أفاءَ بهم عليها ، فلم يرعوها حق رعايتها ، ومن أجلِّها وأعظمها نعمة الإيمان الحق ، التي أعملت فيها طائفةٌ منهم بأقلامهم فتكاً وتشويهاً وانتقاصاً ، مُنيت الأمة بهم بكآبة المنظر ، وسوءِ المنقلب ، وسفاهة العقل ، وكان أن صار الإيمان فيهم يزيد بترك العمل ، ويصلح بسوءِ الخلق ، ويجمل بزور القول ، ومنهم فئة أضلَّ الله هداهم ، وزادهم من عصيانهم ، وغدوا في رحبة الكبر يمرحون ويعمهون ، حتى صار ينسب إليهم العلم ميناً وزوراً ، ويتخذون لعقولهم المنكوصة كراسيَّ خياليَّة حالمة ، من صدور مريديهم الخاوية من الأدب والغيرة والعلم .

٧٢- الظلم إذ لا يُرى قبيحاً

والظلم لا تجمل صوره إلا في عيون القادرين عليه ، المصعِّرين خدودهم للعدل ، ولا يكون للظلم بهجة في صدور الظالمين ، إلا بالتحقق من مقتضاه ، بعزمة شديدة فيهم ، إلا أن يُفلتَ منه شيءٌ ، في غفلةٍ من الظالم ، وربما سرد الظلم ـ بنسيان الظالم شيئاً من ظلمٍ اعتاده ـ لأيامٍ وليالٍ كثيرة ، يصبح من الإساءَة للظلم ، أن يُرى قبيحاً أو مستقبحاً حتى عند من يكرهون الظلم ، وكانوا من قبل يُسْتَفتح عليهم بكراهيتهم الظلم ، وشدة بغضهم إياه ، فماذا يعني هذا التَّحَولُ البغيض لدى الباغضين الظلم؟ وماذا ينطوي عليه هذا التحول؟ وما الآثار التي سينشئُها؟

٧٣- الظلم مُفْظع، والفجوة بين المظلوم وظالمه كبيرة

لا يعنيني الجوابات عن هذه السُّؤَالات ، لكن الذي يعنيني هو : أن الظلم مفظعٌ في كلِّ ما هو عليه ، وفيما يكون منه ، وحتى في مخارج حروفه ، وطريقة التعبير الإشاري ، التي ترسمها هذه الحروف بمخارجها ، فتكون الصورة الصوتية القوية

الأداءِ ، التي تعبر بذاتها عن ما يكتنه الظلم من معانٍ غامضةٍ واضحة ، فلا تحدث في القلب إلا زيادةً في النفرة من الظلم ، مبناه ومعناه ، وبخاصَّةٍ حين تشاهد آثاره ، ترتسم على وجوه المظلومين ، وتخالط بشاعتها قلوبهم ، وتضطرب باليأس بين ظهرانيهم ، فلا يملكون إلا التسليم لما أصابهم ، والرضا بما حلَّ بهم ، وأما الظالم فلا يزداد بظلمه إلا عتواً واستكبارَ السَّيِّءِ ، وتبقى الفجوة بين الظالم المستكبر ، وبين المظلوم المستضعف في ازدياد ، ولن يكون في الناس انقطاع من الظلم ، وحيْدٌ عنه إلى العدل ، وبخاصةٍ إن لم يَرَ الناسُ فيهم عقوبةً تحل بالظالم ، تقمع طلعةَ الظلم في قلب الظالم ، وتُطْمعُ المظلومَ في فيض رحمة الله سبحانه ، أن اصبر وصابر ، وعاقبة الصبر إلى خير ولا بدَّ ، ألم يقل ربنا سبحانه في كتابه : ﴿إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾؟

٧٤- المظلومُ قويٌّ بضعفه؛ لأنّ اللَّهَ ناصرُه

وإذا كان الظلم على ما بيَّنا ـ وفي ثنياته يتقطَّع العدل ، وتذوب خطى الذائِدين عنه ـ ، فإن من مثله ما يكون من غمط حقوق المستضعفين بخاصة ، ليكون أسوأ ما يكون من صور الظلم القبيحة ، وأبشع ما تشكل يدُ أهله القاسية من أشكالٍ

منفِّرةٍ ، تأتي بقسوتها على عافية الأمن ، وتصيب ببطشتها أول ما تصيب من سلامة الاستقرار ، ذلكم أن المستضعف لا حيلة له في درءِ الظلم عن نفسه ، ولا قدرة عنده لجلب شيءٍ من القوة ، تؤْذن الظالمَ أنَّ ظلمه ليس بنافعه شيئاً ، وأن المظلوم قوي بضعفه ، لأن الله هو الذي يتولى نصرته بنفسه ، فأين ـ إذاً ـ تكون قوة الظالم ، وقوة الله تحيط بها؟! ﴿والله من ورائِهم محيط﴾ .

٧٥- منطق الاستكبار لا يتغيّر

والمستضعفون هم القوة الراجية ، التي كانت تظاهر الأنبياء ، وتساند الرسل ، ومنطق الاستكبار العاتي هو هو في كل زمان ، وفي كل مكان ، لا يعدل باستكباره منطقاً ، إلا أن يكون أشدَّ منه قوةً ، وأكثر نفيراً ، وليس يدخل في حسابه ذكرُ المستضعفين ، لكن ذكرهم هذا المهمل ، لا يلبث أن يظهر في الناس قوياً شديداً ، حين تأتي ساعة الإذن ، فلا يبقى مكان ولا إنسانٌ في الأرض ، إلا وقد أصاب علماً منها ، وأظهرُ مثلٍ أظهره القرآن لعاقبة السُّؤَاى مثل قومِ نوحٍ عليه السلام ، لَمّا قالوا له : ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراكَ اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين﴾ وفي سورة الشعراء : ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرْذلون﴾ . .

٧٦- النصر للضُّعفاء

إنه المنطق الذي لا يغيب عن الآفاق ، ولا يحجب عن زمانٍ أو مكانٍ ، ولكأنما ؛ يريد الله سبحانه أن يكون منه نُزُلُ براءَةٍ للمستضعفين ، حيثما كانوا لتكون لهم ـ وهم فيه ـ نصرةٌ يُنزلها الله عليهم ، بما صبروا على استضعافهم ، وقلة حيلتهم ، وهوانهم على الناس ، وما أُترعوا من بأساءِ الفقر ، وضراء البلاءِ ، وحيثما وجد النصر ، فإن الضعفاءَ المخلصين الشرفاءَ ، هم مادته ، وهم لحمته وسداه ، بشرى يعقدها لهم النبي الأعظم ﷺ بمثل قوله : «ابغوني الضعفاءَ ، وهل تنصرون إلا بضعفائكم» ، وكان من دعائِه : «اللَّهمَّ أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين» ، ويشبه ـ بل هو الحق ـ أن يكون الأدب الذي أولاه الرسول عليه الصلاة والسلام رعايته وقوامته الشريفة الأمينة ، تشريعاً محكماً ، يبقى لابثاً في صدور الأمة ، ما كان لها حياة تسعى بها في الأرض ، فمن ذا الذي تحدثه نفسه ـ باستكباره وشدة بطشه ـ أن ينال من هذا التشريع المحكم ، وهو التشريع الذي يتحقق به النصر للأمة في كل أعصارها وأمصارها ، بأيسر الوسائل ، وأقربها ، وأمكنها ، ولما أن ولجت الأمة مولج التيه ، وضلَّت الطريق التي خطَّها لها

رسولها محمد ﷺ ، وعكفت على عبادة الدنيا ، وأصابت من وبلِ آثامها ، وارتدَّت عن سيرة صدرها الأول ، وألانت جانبها إلى فتنة الحياة الدنيا ، هنالك نسيت هذا التشريع ، بل وزاد نسيانها له ، واختلط الأمر عليها ، وأمست في نقيع السوءِ الآسن ، وأمسكت بيدها الهزلة المرتعشة بذيلِ العدو الغاصبِ بتبعيَّة صاغرةٍ ، رضيت أن تتفرَّق أو أن تزيد من تفرُّقها بالاستكبار الذي أخذته فنَّاً عملياً ، وتلقَّته عن الأعداء في طواعيةٍ مستسلمةٍ ، لتعيش به في بغضاءَ حالبةٍ ، وكراهية جاليةٍ ، المستضعفُ فيها مُستذلٌّ باغضٌ ، والمستكبرُ فيها مُسْتعلٍ بغيض ، وتمضي الأمة في لباس التفرُّق والاختلاف على جمر التصارم ورماد التَّكارُه ، لا تعني بأمرٍ تعزُّ فيه ، تُحققه ، ولا بأمر تذل فيه تُبدِّده ، وكلما دنت مما تعزُّ فيه أعملت فيه تقطيعاً ، أو مما تذلُّ فيه أجاءَتْه من كل جهاته تُربيه وتزيده نماءً ، وهذا شيءٌ لا يكون البتَّة ، لو جرت الأمور إلى مقاصدها الصحيحة في مجاريها التي جعلت لها .

٧٧- الظلم ظلمات يوم القيامة

وان كان مكان يصلح لمقام الظلم ، فهو في وسط جهنم عياذاً بالله تعالى ، يعرف بحروفه التي تألفت من مادة الظلام ،

فهو يعرف بحلوكة لهيبه ، وشدة قتامه ، وفوح قتاره ؛ «الظلم ظلمات يوم القيامة» ، إنه الجزاءُ الوفاق ، الذي يضل فيه كل كربٍ ، ويتمزَّق فيه كل بلاءٍ ، ويتشقق منه كلُّ عناءٍ ، ويبقى الظلم حافلاً بكل ذراته وأجزائه ، وبشاعته ، وبطشه ، يراه الظالمون بقوة التخيُّل رؤْية عين أو يكادون ، يتساعَوْن فيه تساعي الهوامِّ العاجزة ، وقد أضحى ظلمُهم بعضاً من عذابٍ أحلَّه الله بهم ، مازه من كل عذاب ، نكالا ناكئاً جراحات عذاب ، بقيت تتربَّص بهم على هُون ظلمهم في الدنيا ، ظنوا أنهم آخذون به لأنفسهم حظاً موفوراً من منعةٍ ، يمنع عنهم سوءَ العذاب ، أو يزحزحهم عن مواقع مواجعه ، فألانوا قلوبهم ، كي تستجيب إلى رغائِب أجسامهم ونفوسهم ، وغرتهم الأمانيُّ العِذاب ، وألهبت ظهورهم سياطُ الأهواءِ الشداد ، واستاقتهم مباهج الدنيا أمامها حتى وقفتهم أمام أبواب العَذاب ، وهمُّوا بما يوقنون أنهم لن ينالوا منه شيئاً لكنها الفتنة التي أوثقتهم إليها بكل أوهاق الظلم ، فأرهقهم على بلاطها ، ومسَّهم بناعم سوئِها وضرَّائِها ، وانتقص بها كل فضل أفاءَ الله عليهم من قبل أن يعتادوا الظلم ويركنوا إلى الظالمين ، ويصبح فيهم سجيَّةً تعافها نفوسهم لشدة لصوقها بهم .

٧٨- أشدُّ الظلم: الذي يُجبَر فيه المظلوم على موافقة ظالمه على ظلمه

وأروع الظلم ، وأشده وأنكاه ، هو الظلم الذي لا يستطيع المظلوم معه إلا أن يوافق الظالم على ظلمه ، ويعده شيئاً غير قابل لأن يوصف إلا بالعدل ، ثم لا يكون له أن يئِنَّ ، أو يُبديَ بعض الرفض أو الإباء ، لأن ما به من سوءٍ فاض حتى عن السوءِ ، وهذا إنما يكون تحت سطوة جور السلطان ، الذي طافت به طوافات الأحزان ، وأخذت عليها عهداً أن لا تكفكف لها دمعاً تهرقه عيونها ، وحثّت أمامها مطايا الآلام ، ولم تأذن لها أن تحرك شفاهها بهَسٍّ أو بنهسٍ ، وجمعت إليها كلَّ أنماط الإذلال لتجعل منها قمص رهبان غير أغيار لمن تليه من رعيتها ، ترهقهم وتؤذيهم بسوادها وخشونتها ، ولا تبالي أن تقدد أجسادهم من عذاب تحِلُّه بهم ، ولا أن تمشط أهُبَهم بأمشاط من حديد ، ولا أن تحطم عظامهم بمقامع من نحاس ، ولا أن تبقر بطونهم بالسيوف والخناجر ، فتلكم هي شرعة الظلم ، يوحي بها إلى أوليائِه أن يضعوه أينما أرادوا وكيف ومتى وبمن ، كيلا يكون عليهم منه حجة أنهم بخسوا الظلم حقه في أمرٍ لم يكن منهم عدل في الإنفاق منه على الوجه

الذي يرتضيه ، والعدل في الظلم ينبغي أن يُسَوَّى بالعدل في العدل ، ولعل هذا المنطق السخيف في مفهوم العدل في الظلم ، هو صناعة جديدة في رواق الظلم ، ولكن عفواً عفواً ، فهو مفهوم قديم ، لكن الأنماط والصور التي يسهل بناؤها في وقت ما ، قد يصعب على ظالم أن يصفها أو يشكلها على نحو ما صنعها أو شكَّلها ظالم آخر ، وقدرات الظلم التي في عالم الظالمين لها في كل وقت ما يحملهم على التَّسابق في صناعة صوره وأشكاله .

٧٩- عالمٌ بلا ظلم !

ولست بقادر على استيعاب تصور ، إخال به جزءاً في عالم البشر ، يخلو من الظلم ، لأن في الناس من يدأب على فراهة قوته في السعي بالإبقاء عليه ، ولو في أدنى درجاته ، وبخاصة في الذين لا يذوقون هناءَة العيش إلا في أكناف الظلم ، وقد صار فيهم طبعاً ، لا يرون فيه ، إلا أنه نعمة أوتوها على قلةٍ وحاجة ، يحسن بهم أن يحرصوا عليها ، لتبقى في ديمومة نماء واستطالة . وإذا ما اجتمع إلى مثل هؤلاءِ الظلمة باسُ السلطان ؛ لم يبق أمامهم إلا أن يكونوا بطّاشين ، ينفون العدلَ والحقَّ من حياتهم ، ويكرهون أشدَّ الكراهة أن يكونوا غير

ظالمين ، حتى لكأن العدل استيأس أن يَرى فيهم أو عندهم شيئاً من أملٍ ، يكون بدايةً للتفكير فيه ، ولربما جفوا العدل ، أو قل إن العدل جفاهم ، ونأى بجانبه عنهم ، وكره منهم أن يُلمُّوا ببعض آثاره التي يحبها من له قلب ، أو يلقي لها السمع وهو شهيد ، ذلكم أن العدل في جبلَّته يكره حتى التناوش مع أضداده من بعيد أو من قريب ، فكيف به وقد انثالت أنماط الظلم ـ تزعق وتشهق ـ في عزة وشقاق ، تَودُّ أن لا ترى حتى بعضاً من ذرات العدل تسبح في الفضاء ، والظالمون ناعمون في شقوة ظلمهم ، يحسبون الخلود لهم في الدنيا حبلاً ممدوداً ، موثوقين إليه بكل ما أصابوا من نعماء الظلم فيها ، لأسابيع ، أو لشهور ، أو لسنين ، وأغلقت عيونهم وقلوبهم عن رؤية حروف بعض من كلمات الكتاب العزيز : ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ و﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ ، وسماع صوت الوحي المنزَّل بها ، ولم يعودوا يذكرون في أنفسهم أن الله سبحانه هو خالق الزمان بساعاته ، وأيامه ، وشهوره ، وسنيه ، وأنه محيط بكل شيءٍ علماً ، وأوقات الظلم بما أحدث فيها الظالمون تطول بشقوة الظلم فيها ، وتمر مسرعةً أوقات العدل بنعيم العدل فيها ، وليس

العاقل بالذي يرى سعادته في سخط الله ويرى شقوته في رضا الله ، بل العاقل هو الذي إن رأى شقوةً على جبين مسحها ، ورسم بسمة فرح على شفتيه ، وإن رأى ظلَّ سعادةٍ يخفق على وجهه نظر إليه نظرة المشفق أن تزول . وأعمار الناس مهما تطاول مداها ، وتباعدت أطرافها ، وربما أدركت الناسَ فيها سآمة العيش ، وتكاثرت أنماطُ التفكير وتلاقحت ، وأبطأت المسيرَ تارة ، وأسرعت أخرى ، غزاه فكر الموت حين أبطأت ، فأسرع يتدارك ما فاته من عمل قصَّر فيه لا من عجز ، والقبض عنه حين لجَّ في إسراعه ، فلربما نسي شيئاً من عمل ، ما كان له أن يفرط فيه .

٨٠- حالُ الظالم المظلمة

والظالم في كلتا حاليه منكوس في إرادته ، ذاهبٌ مع هواه ، لا يبحث عن آلة يقطع بها ظلمه ، من قبل أن يكون الظلم قطعةً من العذاب ، يزيد بها حرُّ اللظى ، ولو كان عقلَ عن نفسه برهاناً يهديه إلى نفسه لا يجاوزها ، لعلم أن من أسوأ الظلم أن لا يفرق بين برهانين ، واحدٍ يعرف به الظلم فيكفّه عن نفسه ، والآخر يعرف به العدل فيمشي به في الناس سوياً على جادة الولاء ، يرنو من فوقها إلى أبواب الجنة الثمانية مفتَّحةً على مصاريعها ، يدخل من أيِّها شاءَ .

٨١- الظالم في سباق مع الموت

فهنيئاً لظالم حيل بينه وبين ظلمه ، من قبل أن تدركه المنيَّة ، وتعساً له إن أدركته المنية ، وقد تكدَّم قلبه بسواد الظلم ، فلم يعد يبصر إلا سواداً من فوقه سواد ومن تحته سواد ، ومن أمامه ومن ورائه ، كلما غدا أو راح في هذا السَّواد ، زاد ضلالاً وتيهاً وخبط عشواءَ فاتكة .

٨٢- دَورُ القلب: الأخذُ أو النبذُ !

والقلب الذي جعله الله وعاءً ، ليجمع إليه كلَّ ما أقدره على وعيه ، وإدراكه ، وعِلمِ ما لا ينفعه منه ، وما يضره ، وما يستوي طرفاه ، فهو يمثل هذه القدرة ، يأخذ مما يفيد ما يسعه الأخذ منه لحاجته ، ويحرص على نبذ كل ما يضره أو يكون سبباً إليه ، ويحرص على كل ما يبعث في نفسه الرغبة لصالح عمل ربما اكتنفه بعض غموضٍ يُفَتِّره عنه .

٨٣- كمالُ الشريعة

وهذا من إملاءِ الفطرة التي أودعها الله قلوب عباده ، وزادهم بصيرة بها بشريعته العظيمة ، التي جعل من بين يديها سداً هو الكمال ، ومن خلفها سداً هو التمام ، وبقيت ـ والحمد

لله ـ في حراسة آمنة من وراء هذين السَّدين ، يحوطهما التصديق والقبول منذ أن بدأ الوحيُ يُقْرِؤُها محمداً ﷺ ، وإلى أن تنتثر حروفها في الآفاق ، وتذهب من القلوب وتزول كلماتها وآثارها ، وتبقى السَّعادة به ، ثواباً بقراءَته وحفظه ، والعمل بمحكم حكمه ، وقياماً بحقه ، وتمثُّلاً بأدبه ، وسعياً في توطيد شريعته .

٨٤- أفدحُ الظلم تعطيلُ الحكم بالإسلام؛ الذي يبرّره مذهبُ (السّلفيين الجُدُد) في مسمّى الإيمان

وأفدح الظُّلم ، وأشَدُّهُ نُكراً ؛ تعطيلُ الحكم بالإسلام ، ونبذ الحق الذي أوجب الله على الأمة القيام به ، ونسيان الأسباب التي تعين على رفع بنائِه ، ثم مع الأيام يقدَّم الحكم بغير ما أنزل الله على الحكم بما أنزل الله ، ثم ينسى الحكم بما أنزل الله ، ولا ينافَسُ الحكم بغير ما أنزل الله ، وتكون طائفةٌ في الأمة فقئت عين الإيمان فيها ، وأصبحت ترى ببقية إبصار عينها المفقوءَة ، ما ألفته بعد فقئِها ، وغابت عنها ما كانت تراه من قبل ، وألمَّ بها فقهٌ جديد عِيْبَ فيه الإيمان الذي أحد شطريه العمل ، والآخر التصديق ، فأسقطوا العمل برمَّته ، ثم أتوا على الشطر الآخر (التصديق) ، وحوَّلوه على معنى جديد وهو : المعرفة ، وبهذا أسقطوا الإيمان برمَّته ، أسقطوه بشطريه معاً ،

فأضحى الكفر إيماناً ، والكافر مؤمناً ، على حدّ قوله ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، الحديث» ؛ وأجروا فقههم الأعرج الناقص هذا ، على الإسلام كلِّه ، وشرائعه كافَّة ، ولا يقصر هذا الفقه على ما يكون من غفلةٍ ، أو من صدفةٍ ، فيُعفى عنه ، بل هو الماضي على وجه الدوام والاستمرار .

وسيق المؤمنون إلى الكفار ، وعيب على المؤمنين (سابقاً) إيمانهم الموروث عن محمد ﷺ وأصحابه ، وصار الإيمان الجديد بكل نقائصه ، ونقائضه هو الإيمان الحق عند أعجاز ، وجيء على هذا الإيمان بطائفة شُهِرت بالسفليَّة ، ونسبوا أنفسهم لها فعُرِفوا بالسلفيين ، وزاد بعضهم اسماً آخر ، نُسبوا به إلى الأثر ، فعرفوا بالأثريين ، فلا والله لا كانوا ولا أثريتُهم ، ولا كانوا ولا كانت سلفيتهم ، فشَقُوا بها وأشْقَوا ، وفسدوا بها وأفسدوا ، وكأنما أرادوا أن يتشبهوا بطوائف النصرانية الجديدة الذين صاروا يعرفون (بالمجددين) أو (بالسبتيين) ، وهكذا أبوا إلا أن يغمدوا خنجر التشبّه في جسد الأمة في وقت صارت الكلمة الظاهرة في الأرض للنصرانية الأمريكية ، فأبت هذه الطائفة السلفية الجديدة ، إلا أن تجعل لها وِصلةً بالنَّصرانية الأمريكية الجديدة العاتية ، ليس من باب التَّشبّه في شيءٍ يُسمع أو يُرى ثم لا

يؤْبَهُ به ، بل هو من الإغراق ، الذي يكرهه حتى المفسدون في الأرض ، وتشمئز منه حتى جلود الذين لا يخشون ربهم ، إنه شيءٌ ولا بدَّ أن يكون من بقايا حصاد الدنيا الفانية .

فهل لهم أن يعقلوا شيئاً كان لهم يوماً من قبل أن يكبَّهم كبرهم الخانع على مناخرهم في مذلَّته ، أما وقد صاروا إلى ما صاروا إليه ؛ فقد صاروا إلى إياب ، أمحل بهم وأعصف ، في أرض خضرة لا تعرف المحل ، فمن أين يكون لهم حتى بعضٌ يسير مما كان لهم من قبل أن يستدفؤوا أو يستبردوا بثوب الكبر الخانع ، ومن بعد إمحالهم في خضرة يانعة؟!

٨٥- قانون سالب: اختلالُ المفاهيم والقِيَم

ومن هذه القوانين السالبة ، التي تدِّمر كلَّ ما أعْلَت الأمم والشعوب من حضارات ، وبنَتْ من مدنيَّات ، وشادت من ثقافات : اختلال المفاهيم والقيم ، التي لا يصلح أمر الحياة والأحياءِ إلا بها ، إذ قد وضعها الله في الناس ليصلح أمرهم عليها ، وليس من صلاح يكون فيهم ولهم إلا بها ومنها وفيها . .

٨٦- النبوّاتُ تتوارث القِيَم

وكانت النبوّات تتوارثها ، وتفضي بها إلى الأقوام التي تكون فيها ، وتُخَصِّبُ من عطائِها وبذلها على قدر ما تصيب منها ، فلا

يعجزها أن تبقى وافية بنفسها ، قائمة بحق الأقوام الذين يبصرون بأنفسهم فيها ، ولا يكون من خلل يكون فيها ؛ إلا وهي تبتدره من قبل أن يتسع ويكبر ، فلا يلبث أن يعود كما كان ، في تأثيره وعطائه ، حتى إذا ما طلعت شمسُ الإسلام على أرض الحجاز ، وعمَّ نورُها أرجاءَ الجزيرة ، وكان يمسك بحبل شعاعها محمد بن عبد الله ﷺ ، وقضى الله عليه أن يكون رحمة العالمين ، وإمام الأولين والآخرين ، وأوحى إليه ما أوحى من آيات الكتاب وسوره وبيِّناته المعجزات ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وليقيمهم على الهدى الذي أراده لهم ربُّهم سبحانه ، وليضع عنهم الأغلال والآصار التي كانت عليهم ، وليربط على قلوبهم ، ويثبت منهم الأقدام ، ويجعل منهم خير أمة أخرجت للناس ، ففجَّر لهم ينابيع المعرفة ، وفتح لهم مغاليقَ العلوم ، وفاقوا الأمم التي سبقتهم في كل الفنون التي قبسوها منهم ، وزادوا عليها قواعد وأُصولاً صارت تنسب إليهم بها ، وأقبلت إليهم طوائف العلماء وطلاب العلم من كل أرجاء الأرض ، تأخذ عنهم في رغبة لا تعرف حدوداً تقف عندها ، ولا سدوداً تنتهي إليها وتمنعها ، مستمدَّة من نصوص الوحي الأمين ، الكتاب والسُّنَّة ، في قوة دائمةٍ ، واصلةٍ بالفقه الواضح السليم ، جامعةٍ بين البعيد منها والقريب ، آخذتهم بمجامع قلوبهم ، على وزان الحق والهدى وسنا الرشد .

٨٧- دَورُ العلوم والمعارف في خدمة الإسلام

والوقوف على رؤوس مسائل العلم ومقتضياته كلها ، القريب منها والبعيد ، اليسير منها والصعب ، الواضح منها جداً والخفي ، الناس فيه متفاوتون ، كلٌّ يأخذ بالقدر الذي يناسبه ، ويوائِم قدرته التي صارت إليه بثقافته ، ولا شك في أنَّ الأمة الإسلامية ، أصابت من ثمار العلوم والمعارف التي خدمتها وأذاعتها في العالم ، على تفاوت بين القرون التي عاشتها ، فتارةً أكثرت ، وأخرى أقلَّت وعلى قدر ما أفادت أعطت ووهبت ، من كل فنٍّ وعلم .

٨٨- علمُ الوحي منحَ الأمة المعرفة بذاتها

وليس يعنيني هنا الذي أعطت ووهبت من علوم كانت لغيرها ثم صارت إليها ، لكن الذي يعنيني هو علم الوحي ، الذي أنزله الله على نبيِّه ، لتكون الأمة به خير أمة ، ولتُجريَ به السعادة على العالمين نوراً ، وهدىً ، وحكمةً ، وحباً ، وتعاوناً ، وألفةً ، وإيثاراً ، وبذلاً ، وتضحيةً ، وإمساكاً عن الأذى والشر ، وإسراعاً في كل ما ينفع الناس ، هذا العلم هو الذي استطاعت الأمة به أن تعرف ذاتها ، وأن تكون دائماً به ، على الأصل الذي حفزها لبناءِ ثقافتها ، وحضارتها ، ومدنيتها ، ملأ عيون

الأمم كافة ، من سبقها ، ومن عاش في أزمانها ، ومن يكون من بعدها إن قضى الله فيها قضاءَه من قبل أن تكون قد حقَّقت المعنى الكامل لقوله سبحانه : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ .

٨٩- علمُ الوحي أسُّ العلوم

وليس يَحْسُنُ أن يخفى أنّ علم الوحي ، هو الذي أفسح للعلوم الأخرى القُدْرةَ في أن تمشي في طريق الحياة البشرية ، تضع من ذاتها ، وأسبابها ، وكلِّ مقوِّمات وجودها ؛ لتبقى موصولةَ الأداءِ ، تَهبُ من يريد أن ينيل منها نفسه من غير إقلالٍ يوهن ، ولا ازديادٍ يُرْبِك ، وتمسك عمن يُريدُ أن يَصُدَّ نفسه عن الإفادة منها ، وهي تومئُ له أن ينيل منها نفسه ما يشاءُ وقت ما شاءَ ، غير حاظرةٍ عليه شيئاً ، وعلم الوحي يسدد العقول التي تعيها ، ويكلأُ القلوب التي تحفظها ، ويكون من قبل ذلك ومن بعده هو الذي يبقي على الصلة الوثيقة بين الإنسان الذي يسعده الله بحمله ، وبين منزِّله على المبلِّغه ، ويكاد المرءُ يقرأُ في هذا المعنى قوله سبحانه : ﴿والسماء ذات الرجع﴾ ذلكم أن الله سبحانه إذ قد أنزل كتابه على نبيِّه عليه الصلاة والسلام تشريعاً هادياً وأحكاماً حافظةً ومسددة لعباده ،

فإنها عائدةٌ إلى الله أعمالاً صالحة ، وطاعاتٍ مستجيبة ، يكتب الله بها السعادة للعاملين الطائعين ، والرضا يوافقهم على عرصات الآخرة .

٩٠- (الغَيْرة) حارسٌ أمين

وهذه الأعمال هي التي تبني في قلب العبد الصالح المودَّة الصافية بينه وبين ربِّه الذي أنعم عليه بتسديد العمل القاصد ، الراغب فيما عنده ، وما يكون من غيرةٍ لا تفلت بها مُفلِتةٌ من عمل صالح ، سواءٌ أكان هذا العمل نافلةً أم كان فريضةً ، ولا يُؤْذِن بها لعملٍ غير صالحٍ أن يلج عليه باب نفسه ، فيواقعه ، فهو آخذ بِجُمْع الصالح من الأعمال ، عائذٌ بموهوب غيرته من غير الصالح منها ، فهذه الغيرة تشبه أن تكون حارساً يقظاً أميناً ، فالصالح يفتح له الباب ، ويؤْذن له بالدخول في أيِّ وقت شاءَ ، والفاسد يغلق دونه الباب ويردُّ عنه . ويمكن القول فيها أو تسميتها بالتقوى من جانبٍ من جوانبها ، لكنها في غير هذا الجانب ، لا تصلح إلا بهذا الاسم ، (الغيرة) ، إذ لها من الأحوال ، والسّمات الخاصة وما لا يقدر على اكتسابها والتَّربِّي بها إلا القليل من التقاة ، الذين هيَّأهم الله بقدرات تعزُّ في الناس إلا على أهلها وحدهم من أمثال سعد بن عبادة ، الذي أثنى

عليه الرسول ﷺ ، بما فضَّله الله به من هذه النعمة ، نعمة الغيرة .

٩١- الغيرةُ الإيجابية كرامة يختصّ اللّه بها طائفةً من عباده

وليس الحديث عن الغيرة ، يصلح معه الحديث عن غيرها ، لأن الحديث عنها هو الحديث عن صفة من صفات الله سبحانه ؛ فلا بدَّ إذاً من أن يكون تكافؤٌ جليٌّ بين من منَّ الله عليه فأصاب هذه الصفة أو بعضها من البشر ، وبين هذه الصفة ، فهي كرامة يختصُّ الله بها طائفةً من عباده ، قادرةً على حملها على نحو ما بيّنا آنفاً ، لا تخضع في سلوكها وتصوُّرها لعوامل التغيير والتحوُّل في حياة الإنسان ، لأن بقاءَ كينونتها بيد الله سبحانه . . فهو لها الظهير والنصير ، والكفيل والضَّمين ، ومن كان الله له كذلك فقد أفلح وأنجح ، وجعل الله له طريقاً إليه ، فلا يضلُّ ولا يشقى ، ولا يزيغ ولا ينسى .

٩٢- القدُرات التي تجلبُ الغيرة

والقدرات الجالبة الغَيْرةَ موجودةٌ في صدر كلِّ مسلم ، ليست تحتاج من صاحبها إلى عناءٍ في إظهارها والكشف عنها ، فهي لا تحتاج إلى أكثر من أن تدفع بها إلى سواءِ القصد وأنت

مقيم على الأمر المرادِ إنفاذه بالتصوُّر السليم الهادئ ، لكنها قدرات ـ وهذا أمرٌ بدهي ـ متفاوتةٌ ، تتعاطف فيما بينها بالأخذ والعطاء والتعاون إن كانت صادقة في حيازتها هذه القدرات ، ووضعها مواضعها التي لا تختلف فيها عن مقاصدها ، ولا يضعف الأدنى فيها عن الأخذ بحظٍّ من قدرات الأعلى ، يشدُّ بها أزره ، ويتقوَّى بها ولو إلى حين ، وإذا صار إلى شيءٍ من ذلك ، فإنَّ الأيَّام ستكسبه بذلك زيادةَ قوةٍ واقتضاءٍ لما قد يميل إليه وتكون الرغبة فيه وإليه ، أو نفرةً واشمئزازاً مما يشين الإنسانَ المسلم في دينه وعرضه ، وقد يكون لديه من القوة الذاتية ما يقوى به على دفع هذا الذي يشين ، أو بعضه ، أو قد لا تكون لديه هذه القوة التي تمكنه من دفع هذا الشين ، لكن قوة نفسية خفيَّةً ، تدور في صدره وتشتد ، وتفحص بكل ثقلها ، باحثةً عن نفاذٍ لها في شيءٍ مما هو واقع تحت حسِّها ، فإن لم تجده ارتدت إلى ذاتها فأضرَّت بها ، ولربما أوقعت بها عاهةً شديدة تلازمها حياتها ، ولا يكون علاجها ـ بتخفيف أو بإزالة واستئصال ـ من بعد طول زمانٍ أو قصر ، فقد أحدثت فيه هذه العاهة ، بقدر ما كانت الغيرة ستحدث أو تنشئُ من أثر إيجابي يتكافأُ ، مع قوتها لو كانت فاعلة .

٩٣- غيرةُ سَعْد

ووصفُهُ عليه الصلاة والسلام غيرة سعدٍ حين ردَّ عليه ذلك الردَّ الذي يحمل في حروفه كل القيم العالية ، التي تَكَوَّن من بعض حروفها شيءٌ من معاني الغيرة ، وهي عمل قلبي محض ، ينشأ منه كلُّ الفضائِل النفسية التصوُّرية ، والسلوكية العملية ، التي تجري على الإنسان ظاهره وباطنه ، في توافقٍ وانسجام تامَّين ، لا يختلف ظاهر فيهما عن باطن ، ولا باطن عن ظاهر ، ذلكم أن الغيرة تُحدِث في نفس صاحبها ، ما ليس في وسعه أن يصنعه لو لم تكن عنده .

٩٤- للغيرة اتجاهان: اتجاهُ دفعٍ وردّ، واتجاهُ استقبالٍ وأخذ

وبدهيٌّ أن الغيرة ليست توجد بالدُّربة والمران في صاحبها ، فقد ذكرت من قبل هذا أن الغيرة تولد مع الإنسان ، فتكون في جبلته ، بل هي موجودة لدى كثير من الحيوانات لأنها شيءٌ من الأدوات العضوية ، التي لا يستغني الإنسان عنها يوماً من حياته ، وهي تعمل في اتجاهين متضادَّين في آنٍ معاً ؛ اتجاه دفع وردٍّ ، والآخر اتجاه استقبال وأخذٍ ، وأيُّ خللٍ يقع على وجهٍ

منهما ، فهو واقعٌ لا محالة على الوجه الآخر ، ومؤثِّرٌ فيه تأثيراً سلبيَّاً ، يحدث خللاً واضحاً في عمله ، لذا فإن من استبان له مثل هذا ، فعليه أن يعجل إلى نفسه ، يدَّارك هذا الخلل بإصلاحه ، وأخذها بكل سبيل يعلم أن فيها شيئاً من نفع يصيبه فلا يدعه .

٩٥- الغيرة إذ تصبح نمطاً واسعاً؛ يَصلحُ المجتمع، وتكون هي الضابطَ القانونيَّ له

وهذه الغيرة ـ وهي أرفع أخلاق الإيمان ـ في الفرد الواحد إذا انضمت إلى أخرى مثلها في ثان وثالث ورابع ، فإنها تشكل نمطاً واسعاً ، ربما أحاط بمجتمع برمَّته ، يحكم من ذاته على هذا المجتمع فيخضعه له ، فلا تندُّ مسألةٌ ، أو يضلُّ أمرٌ ، إلا وقد أخذ من هذا النمط شيئاً يَردُّ ما ندَّ ، ويهدي ما ضل ، فتعود الاستقامة إلى هذا وذاك ومع الأيام ، يصبح المجتمع ، قادراً على الإصلاح الذاتي في يسر وسهولة ، ويكون الأفراد على أحسن ما يكونون من التجاذب الذاتي في كل حالٍ تدفعهم الحاجة إلى الوقوف مع الغيرة في إتمام الناقص من الأمر ، وإصلاح المعوج منه ، وإبانة الفاسد عنه ، وردِّ ما نأى عنه . . . إلخ .

وبمثل هذا المفهوم العمليِّ للغيرة ، تكون هي الضابط القانوني

لجميع أنماط السلوك التي تصدر عن الفرد ، وعن الطائفة ، وعن الجماعة ، وتكون الغيرة به هي النظام الذي ينتظم كل أفراد المجتمع ، وتُحكم وثاقهم إليه ، ويصبح عسيراً جداً عليهم أن يفلتوا أنفسهم منه ، ويكون ولاؤُهم بعضهم لبعض ولاءً يصعب جداً على الجماعة أو الفرد أن يخرج على إلفٍ صار إليه بمثل هذا الولاءِ ، ومثله أيضاً يكون ولا بدَّ للجماعة الواحدة سواءٌ كبرت هذه الجماعة أم صغرت ، وسواءٌ أُخذت من أطرافها ، أم بقيت على تمامها ، فقد أمسكت الغيرةُ بها ، وكانت هي الوثاق المتين الذي أخذ بمعصمها ، فلا تفلت منه ، بل ويستحيل أن تندَّ عنه .

٩٦- تفاوُت الغيرة؛ التي بها يُصطفى القادة

نعم إن التفاوت في الغيرة قوة وضعفاً إن عمَّت وشاعت كائن لا محالة ـ وهذا أمر لا مرد له ـ ، لكن قدراً منها بين جميع الأفراد موجودٌ ، وبهذا القدر تتعاطف النفوس ، وتتقارب القلوب ، وتتدانى الوجدانات والعواطف ، ويكون منها على تفاوتها تنافسٌ ، يشتد حيناً ، ويخبو حيناً ، وهذا التنافس قد يطول ، بل لا بدَّ من أن يطول ، كي يكون اصطفاءُ الله سبحانه لواحدٍ أو لاثنين أو لثلاث ، أو لأكثر من ذلك ، لتكون منهم الطليعة القادرة على التوجيه ، والقيادة ، ورسم الخطة السليمة ،

وبناءِ المنهج الواضح الأمين ، الذي تظل به هذه الطليعة في مكان القدوة ، المائِزة نفسها من سواها ، فتحدث من التغيير والتبديل على وفاق القانون الإلهي : ﴿إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم﴾ وهي ثابتةٌ على القدر الذي أحاطها الله سبحانه به ، بل إنها لو كان للقدر أن يتحوَّل عن حالٍ ، لكان تحوُّله عنها بإذنٍ منه لمثل هذه الطليعة ، التي اصطفاها الله سبحانه ، فإن لم يكن على مثل هذا النحو ، فقد يكون بإظهار أسباب التغيير لها ، وإدنائِها منها ، حتى لكأنها ما كانت وما خُلِقت إلا لها ، وأن الله سبحانه قد خصَّها بها من دون خلقه ، فهي تبدو أمامها متجردة من كل ما قد يحدث في النفس تشوّشاً يُبطِّئُها عنها ، فهي كينونة الحفظ والسلامة ، وتحت لسانِ من قال فيه عليه السلام : «لو أقسم على الله لأَبَرَّه» .

وغيْرَة هذه الطائفة ، أو هذه الطليعة مكلوءَةٌ بالتقوى ، وطاءً وغطاءً ، دثاراً وشعاراً ، جسداً وقلباً ، بطانةً وظهاراً ، فما أسعدها بما حباها الله وأفضَلَ عليها من نعمة الكَلاءَة ، وحفظِ عين خالقها سبحانه لها ، كيلا يُنْقَطَعَ بها ، ما دام على الأرض حياة .

٩٧- فِكرُ الغيرة !

ولو عقلت الأمة الغيرة عن ربها لجعلت من نفسها فداءً لها ، ولكان الموت أحب إليها من الحياة ، أنَّها تعيش في الدنيا ولو ساعة من نهار بلا غيرة ، ولأسرعت إلى كل سبب تدريه عن القرون الخالية ، وكانت أصابت منه بعضاً أو لم تصب ، فتجمع إلى ما أصابت البعض الذي لم تصب ، وتشتد في البحث عن الذي لم تصب ، عازمةً على أن تصيبه ، لتوفِّر قدر ما تستطيع من الغيرة ، فهي التي بها كان تحريم الله سبحانه الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن ، ولكل مؤْمنٍ أن يحرص على كل قدر يقدر عليه من الغيرة ، ليكون الباعثَ له على أن يلتئَم به إلى جماعة المؤمنين ، فينشأ منهم وبهم فكرٌ واحدٌ ، يمكن أن يُسمَّى أو يُعرَف : بـ (فكر الغيرة) ، تحرس به أعراضهم ، وتصان به أخلاقهم وفضائِلهم ، وتنتظم به قيمهم وعقائِدهم ، وتزجر به رغائِبهم عن الطُّلَعة والاستشراف إلى غير ما أذن الله به لها ، ولو كان في أنزل درجاته ، ويُكْبَح به جماحُ نفوسهم .

٩٨- وهنُ الغيرة في هذا الزمان

ومن صار إلى زماننا هذا ، فإنه يكادُ يسمع صوت تشقُّقِ إهابه ، وهو يكاد يبصر بالآلام خفافاً وثقالاً تنتاب جسده ،

وتتدافع إليه ، من سوءِ الحال التي آل إليها المسلمون ، من نزوح الغيرة عن أرضهم ، وهجرة التقوى من بين ظهرانيهم ، وارتحال الحياءِ عن شواطئِهم ، وسهولهم ، وجبالهم ، حتى لكأنهم لم يعرفوا يوماً شيئاً من حياءٍ أو تقوى أو غيرة إلا أن يكون أثراً ، لا يزيد على أن يكون ذِكْراً ، وهذا ضرب من ضروب الخيال أو يكاد ، فما أُثر عن الأولين السابقين من تلكم الثلاث ، يكفي لأن يكون صُفَّة تغطِّي كلَّ أرض يُذكرُ فيها أو ذُكِر اسمُ الله فيها أو سيُذكَرُ يوماً من الدهر ، بيد أنّها لا تجد في صدور المسلمين إلا أنيناً صامتاً لا يحفزها على التعلّق بها .

٩٩- الغيرة بمفهومها العالي: تصديقٌ لمراد اللّه

وقد علمَت الإنس والجن ، بأن الغيرة بمفهومها العالي هذا ، إن هو إلا تصديقٌ لمرادِ الله سبحانه ، في أمر قضاه في طائفةٍ من خواصِّ خلقه ، يرفع به أقدارهم عنده ، ويجمِّل به منازلهم بين خلقه ، ويكونون به سُرَّة الأيام والشهور ، وزينةَ أهلِ الأرض وعُمَّارِ الآخرة ، وأحقَّ العباد بكرامةِ ربهم سبحانه ، وأقربهم منه وإليه منزلة ، فغيرتهم خلقٌ اقتبسوه من غيرتهم ، وشيءٌ قفوا به أثر معلِّمهم وإمامهم ، فصاروا على أرغب حال منه ، وأحسنِ مرأى في عينيه ، ومثلاً يقرُّ به قلبه ، وتطمئِن به نفسه ، أنهم إن

كان لهم عيش من بعده ، فلسوف يَسْعدون بما أفسحوا لأنفسهم من رجاءٍ عند ربهم ، يوردهم مقعد صدق الحب في قلوب الناس ، ولغيرهم ممن أولونه شيئاً من غيرتهم أو أثارةً من أثاراتها ، فلا يرقبون لهم فيما يخفى من أمورهم أو يظهر منها ، إلا ما يجدون في قلوبهم من حبٍّ للخير يحرصون على إنفاذه لكل من يُبَصِّرون أعينهم به ، تحقيقاً لمثل قوله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ولشيءٍ من مثل قوله سبحانه : ﴿ويؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ .

١٠٠- ذهابُ الغيرة يعني حلولَ المآسي

والحديث عن الغيرة يقودنا إلى الحديث عن المآسي التي صارت في الأمة ، حين غيِّبَت الغيرة ، وأضحت في الناس نسياً منسياً ، وامَّحت آثارها أو كادت من حياة الأمَّة ، وصارت بذلك كلِّه أحبَّ إليهم من ظهورها وذكرها ، بل وزاد الأمر على ذلك زيادة تبعث على الحزن والتحسُّر حين صار ذكر الغيْرة شيئاً يُستحيَى منه ، بل ويقبح عند السّواد الأعظم ذلك ، وإذا كانت الغيرة ـ وهي من صفات الله سبحانه ـ أصبحت على مثل هذا الاستقباح في الأمة ، فماذا ينتظرها من سوء المصير في الدنيا ، وسوء في الآخرة؟ ، إذ أليس هذا شيئاً مفظعاً من الكفر البواح ، والجحود

الصراح لله سبحانه . يؤْذن بخراب العمران ، وفساد البلاد؟!

١٠١- الغيرة فطرة لا تقبل التجزيءَ

إن واحداً من السوءَين إن حلَّ بها فهي قد أولت نفسها مصارع كالحة ، أرِيَت بعضاً منها ، والأخرى جاثية ترقبها على وجلٍ واستحياءٍ وتساؤلٍ هامسٍ ، فكيف إن التقيا على صعيد جسد واحدٍ ، والغيرةُ شيءٌ لا ينقسم ، وكل لا يتجزأ ، فمن سلك سبيلاً لقسْمه ، فإنه يكون عادياً على الله ، لأنه يريد بذلك تقسيم شيءٍ على فطرةٍ ما لا تقبل التحوُّل أو التجزئة ، وهي - الغيرة - فطرةٌ في فطرةٍ ، قال الله فيها : ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم﴾ ، فهي شيءٌ قضى الله أن يكون على مثل هذا ، فأنَّى يكون قَسْمٌ أو تحوُّلٌ؟

١٠٢- مراقبة الغيرة

إذاً فمطلوب من العبد المؤمن أن يجعل من غيرته أمراً لا يغيب عن قلبه ولا يتحول عن سويدائه ، فيظل مرقوباً على سواءِ القصد ، ثم إن ما يكون من تجاذب وتآلفٍ بين الغِيَر الكثيرة - التي أمكن الله لها من الحياة - يزيد من قوتها ، ويضعِّف من شدتها وتماسكها ، فيزداد بذلك عطاؤُها ونماؤُها ، وهذا العطاءُ والنماءُ ، لا يكون إلا حيث توجد الأسباب القادرة

على إظهارهما ، وإذكاء النفوس بحرارة الإبقاء على وهج الصلة فيما بينها ، وهذا الوهج هو شيءٌ في الغيرة نفسها ، تعطي منه ، ولا يتأثر بما قد يكون من إخلالٍ بذهابه أو بضعفه ، وتبقى على الحال التي تولد عليها ، لأنها فطرة ثم هي أيضاً من الفطرة العامَّة ، التي يولد الإنسان عليها .

١٠٣- إذا أصاب الغيرةَ الوهنُ؛ فالواجبُ تفقُّدُ الفطرة

وإذا ما أحسَّ الإنسانُ المؤْمنُ بشيءٍ من الوهن ، يطرأُ على غيرته ، فليس له أن يعود إليها نفسها ـ علَّه يعثر على سبب هذا الوهن ـ بل يجب عليه أن يعود إلى الغيرة الأم ـ وهي الفطرة ـ التي أنبتَ الله سبحانه فيها الدين كلَّه ، وزرع فيها الغيرة ، وأحاطها بكل أسباب الرعاية ، وأبان منها كلَّ أسباب الفساد ، وجماع هذا في قوله عليه الصلاة والسلام : «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاءَ ، هل تحسون فيها من جدعاءَ» .

لكن أين تقع النصرانية ، أو اليهودية ، أو المجوسية ، من الفتن العاصفة الهوجاءِ ، التي تملأُ أرجاءَ مجتمعاتنا اليوم برهج عَصْفها ، وتسوِّد آفاقنا بكلُوحة رمض سوادها ، ولا تذر من

شيءٍ تأتي عليه من خير إلا سفكته وأطاحت به وجعلته فَزَع حاطِمة ، فلا يقال فيها : أين الحاطمة؟! ولا أين الناجيةُ المنجيَةُ؟!

١٠٤- العَاصِم من القواصِم

إنه لا عاصم اليوم من سوءِ أمر هذه الفتن ، إلا اللواذ بغيرة الله ، التي حرَّم الله بها ما حرَّم من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأفسح لعباده من ورائها ومن أمامها ما أفسح بإحلاله لهم ما أحلَّ من كلِّ ما ينفع ويحسن ، وجعل مما أوجد فيهم من غيرةٍ ، ما يعصمهم عن مواقعة الفتن بقبحها ، ويرغِّبهم في كلِّ ما أحل لهم ، غير آخذين أنفسهم إلا بالنظر السهل ، لهذه ولتلك ، فيَدَعُونَ ما حرَّم الله عليهم رغبةً عنه ، ويأتون ما أحلَّ الله لهم رغبةً فيه ، فإنْ مالت نفوسهم إلى الأولى أسرعوا بردِّها عن ميلها ، وإن شاحت وجوههم عن الثانية لم يكن ذلك إلا بشيءٍ من الزهد فيها ، من غير رغبةٍ عنها أو كفٍّ لها إلا ريثما تستهويهم بحلالها إليها ، فيكون الزهد والرغبة فيها سواء ؛ لأن الغيرة التي كان بها التحليل والتحريم ، هي نفسها التي كان بها الكفُّ للنفس من زهادةٍ ، وهي التي كان بها الرغبة باعتدال ومن غير جشع وطُلَعةِ نفسٍ ، وبمثل هذا يكون حضور الغيرة ، فيها الأخذ والإعطاء ، وفيها الترغيب والترهيب ، وفيها اللين

والشدة ، وتبقى قائمةً ماثلةً في صدر المحبِّها ، الذي يعرف من نفسه حيال الأحوال الناشِئَةِ بينه وبينها ، أنه لا سبيل إلى الانعتاق من قيدها ، ولا صدِّها عن التأثير في المقتضيات التي تنشأُ منها ، وذلك ما دام حيَّاً .

١٠٥- غُربة الغيرة

ولو كانت الغيرة يمكن تحصيلها ، بصناعةٍ ، أو بتجارة ، أو بزراعة ، لكان الأمر إليها شاقاً ، عسيراً ، يحتاج إلى جهدٍ كبير يبذل ، وربما كان الفشل هو الأسبق ، فيبوءُ الساعي بالخسران والتعب ، لكن الغيرة ـ كما سبق وذكرنا ـ هي أمر فطري ، ليس للإنسان فيه إلا أن يصدقه من ذات نفسه ، فتبقى الوشيجة وثيقةً بينه وبينها ، تسعى به في ظهور ملأٍ ، وفي خفاءِ حالٍ ، في غير تكلُّف ، ولا تردد ، ولا ارتياب ، ولا تحرُّج ، ولا يكون هذا من باب المباهاة والمفاخرة ، بل يكون من باب التحدث بنعمة الله ، وحضِّ الناس على المعروف والبرِّ ، واكتساب الفضل الذي لا يُحْرزه الإنسان إلا بمثل الغيرة ، التي عثرت في هذا الزمان بذيلها ، وصارت تبحث عن نصيرٍ لها ؛ فلم تجد ، ولم تجد ذلك حتى من الذين كانت تلوذ بهم ، وكان لهم إنابة إلى ربهم ، ورجعةٌ إلى خالقهم ، ذلك المنعم المتفضِّل عليهم ،

فقد صار الناس إلى حال ، أضحت الغيرة فيهم على غربة نابذة ، تُجيل فيهم قِداحها ، وكلما أخرجت واحداً منها كان غفلاً ، فتعود إلى جرابها مرة أخرى في غير يأس ولا ملالة ، فقد أوتيت من قوة الإرادة وبأس العزيمة وسلامة الفطرة ، ما يُمَنِّعها من السُّقوط أو الهويِّ أو احتلاب القنوط ، فهي وبلا ريب لن ينقطع منها الرجاءُ ، ولو على مثل اختلاب البرق ، يبقى الناس منها ، وتبقى هي من الناس على ذُكر ، تريهم ولو اليسير منها ، مما كان من ذكراها ، يوم أن كانت الشمس تخالجها في رابعة النَّهار ، أو في إغماضة الأصيل ، أو في حاسرة الشَّفق ، ما بقي في الناس ذكرُه ، وسيبقى ما دام في الناس وعلى الأَرض حياة ، فهي إرادة الله الماضيةُ ، وقدره الثاقبُ ، وإذا أراد الله لشيءٍ أن يكون فإنما يقول له كن ، فيستوي في حواسِّ الخلائِق كما صوَّر وقدَّر ، ولكأنما عزَّت الغيرة على حين غفلةٍ حتى من أهلها ، الذين حُمِّلوا أمانة الغيرة ، فلم يَسُغ حملُها للذين لم تجد الغيرة سبيلاً إلى قلوبهم ، ولعلهم رأوا فيها ما يهيض جناح رغبة نفوسهم ، وهم لا يزالون على شرخ رغبتها ويودُّون لو أن شيئاً مما يؤَمِّلون ، مما قد يكون قد فاتهم ، وبات فيهم على وادٍ ، إلا ما يكون من طُلَعة نفس يودُّون بها أن يصيبوا ذلك الذي فات ، إن كان يُدْرك في

حَلالٍ ، بعيداً عن المنكر والفحشاءِ .

وليس يخفى أن هذا ضربٌ من الغيْرة ، يمشي في الناس على استحياء ، يريد ولا يريد ، يحب ولا يحب ، يقدم ويتأخر ، يسرع ويبطئُ ، وهذا إن دل فإنما يدل على عوجٍ في التصور ، وانتقاص في إسقاط مثل هذا التصور على الواقع المنظور ، فينتفي بذلك أن يكون للغيرة ذلك التأثير المطلوب أو المأمول ، ومع توالي الأيام والليالي يصبح الحديث عن الغيرة نسياً منسياً ، وإن كان يكون شيءٌ مما قد تستذكر به الغيرة ـ وعلى تباعد ولا بدَّ ـ فإنه لا يكون خارجاً عن دائرة النسيان ، لكنه يبقى محموداً محبوباً في الأمة .

١٠٦- دَورُ أمثلة الماضي في إذكاءِ روح الغيرة

ومما يعين على إذكاءِ روح الغيرة في الأمة من جديد ـ ويشدُّ من أزر السُّور الباقي منها في قلوب بعضٍ من أفراد الأمة ـ أن يُمدَّ حبل التذكُّر بين الحاضر وبين الماضي ، بإبراز الأمثلة الكبيرة التي كانت الغيرة شاهدة لها على صدق صلتها بها ووثوقها ، وكانت هي أيضاً شاهدةً على حسن قبول الغيرة لها ، وانسجامها الانسجام الكامل ، مع كل ما يصدر عنها من مؤثِّرات موجبة وسالبة توافق الفطرة ، وتستجيب لها بما هيّأها

الله سبحانه له ، من قدرات عجيبة هي على تباينها واختلاف طرق أدائِها ، تلتقي على روح الفطرة في الإنسان ، التبدَّت في صورته البديعة أحسنُ قُدرات الإعجاز القائمة بأمر الله سبحانه وحكمته البالغة .

١٠٧- الغيرة تكاملٌ تلتقي فيه إرادة المؤمن

ومما يجب لفت النظر إليه ، أن الغيْرة هي في حقيقتها الناصعة الوضيئة ، لا تعني طغيان جانب في الإنسان المؤمن الصالح ، على حساب جانب آخر فيه ، بل هي التكامل الذي تلتقي فيه إرادة الإنسان المؤمن الغيور ، بتصوراته الصادقة ، وما تُنبتُهُ من سلوك يعمره صدقها ، ويكون التماسُّ الناشئُ بينهما على درجة متينة من الثبات ، لا تقبل التحوُّل عن الآثار الإيجابية التي تظهر من غير تكلُّفٍ ولا إبطاءٍ عن اللحظة التي تتولَّد فيها هذه الآثار .

١٠٨- الغيرة التي يحبّها اللّه ورسوله هي المقيَّدة بأحكام الشرع

وجنوح الإنسان المؤمن بإرادته هذه إلى يمين الصراط أو شماله بشيءٍ من الغلوِّ أو الإفراط فيما ينتابهُ من قولٍ أو فعلٍ

تكليفي ، أو زيادة يخشى أن تكون هي بدعة في نفسها ، أو أن تمهِّد لبدعة ، أو أن تصير هي بدعة ، كل ذلك بعيد كل البعد عن الغيرة ، فحقيقة الغيرة : هي الوقوف مع الأحكام الشرعية كما شرعها الله سبحانه على وفاق مقتضى كلمة التوحيد الحق ، من غير غلوٍّ أو تفريط في حق هذه الكلمة ، وتمثُّلها تمثُّلاً كاملاً محيطاً بالتصور والسلوك ، الذي لا ينأى عنه ، ولا يندُّ منه شيءٌ مهما دقَّ أو خفي في النفس أثره .

وقد يكون من الإنسان غير المؤمن فعلٌ شديدُ الوقع والأثر ، يقول فيه الناس أو يصفونه بأنه لم يحمل عليه إلا الغيرة ، كمن يقتل امرأة بكراً زنت ، كأن تكون أختاً أو بنتاً ، وهو يظن أو يعتقد أنه لم يأت ما يستقبح ، ويكفي أن يكون بقتله هذه المرأة قد محا عنه العار ، وأذهب سوءَ الشنار ، وقد يكون هذا القاتل ليس مُدخِلاً في حسابه صلاة يحافظ عليها ، ولا زكاة يؤَدِّيها حقاً لله عليه ، ولا حجاً يبذل فيه مالاً وجهداً ، لكنها صبغة الجاهلية التي كانت تحمل أهلها على وأد البنات ، خشية العار .

نعم ، إن هذا من الغيرة ولا بدَّ ، لكنها ليست الغيرة التي يحبُّها الله ، ويحبها رسوله ﷺ ، إذ الغيرة التي يحبها الله ورسوله هي التي يحيطها لزوم الأحكام الشرعية ، والوقوف مع

مقتضاها الكامل من غيْر نفرة ولا حرج : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموكَ فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلِّموا تسليماً﴾ وهذه الآية تصور الغيرة تصويراً دقيقاً ، وفي أسمى معانيها ، ولا أدري كيف تفرِّق هذه الغيرة المجانبة للفطرة السوية ، بين المرأة وبين الرجل ، وكلٌّ منهما قد واقع ذنباً شائناً بغيضاً ، والأصل في الكفِّ عن مثل هذا الذنب الخشية من الله ، والخوف من أليم عقابه ، وذلك هو الذي عناه النبي ﷺ حين قال : «أرأيتم إلى غيرة سعد ، فأنا أغير منه ، والله أغير مني ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» ، وكلُّ مؤْمنٍ يعرف من نفسه الحميَّة الدينية التي تُقْدِرُه على حَمْل ما يَقْدر على حمله من مسؤولية نفسه والناس من حوله ، بضعفه البشريِّ حيناً ، وبشيءٍ من قوةٍ مركوزةٍ في ذاته حيناً «والمؤْمن القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير» .

ومن أجمل ما يكتنف الغيرة لإذهاب الفساد عنها مما له علاقة بالمال وشؤون الحياة المتعلّقة به ، أن يتمثل الفرد الواحد والجماعة في المجتمع ، بل والمجتمع كلُّه قوله سبحانه : ﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ فيزول من

أُفـقـه شـبحُ الفـزع الرعـيب الذي يكاد يتـخطَّف منه الأمن ، والعافية ، والرزق ، ويمضي إلى مقاصده في ألق النّهار ، وعتمة الليل ، لا يخشى انتقاصاً ، ولا عثاراً .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وبدءاً وانتهاءً .

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهرس

١ ـ نواميسُ اللَّهِ تسيرُ في نظام دقيق ٥
٢ ـ عملُ النواميس تعرفهُ الفطرَة ٥
٣ ـ للنواميس فطرة تدلّل على إعجاز الخالق ٦
٤ ـ الإنسانُ كونٌ صغيرٌ ٧
٥ ـ تفكُّر الإنسان في نفسه يزيد إيمانَه ٧
٦ ـ إدامة النّظر في القوانين الكونيّة تزيد الإفادةَ منها ... ٨
٧ ـ كيف نتعامل مع النواميس؟! ٨
٨ ـ أهميّة استحضار النواميس الإلهيّة ومعرفتها ٩
٩ ـ العاقل يُديم النظر في النواميس ليميّز آثارها الإيجابية من السّلبية ١٠
١٠ ـ أهميّة التكرار والتجربة في معرفة النواميس ١١
١١ ـ الجهل في التعامل مع النواميس يؤدّي إلى الهلاك .. ١٢
١٢ ـ للقوانين اتجاهان : سلبيّ وإيجابيّ ١٢
١٣ ـ ترابُط النواميس وتداخُلُها ١٣
١٤ ـ إعجاز الكلمات التامّة بالتقاء الكلمة مع الفعل ... ١٤
١٥ ـ تفكُّر الإنسان بنفسه مذكّرٌ بالقوانين لا ينفكّ عنه ١٥
١٦ ـ فرضية التعاون على فهم القوانين ١٦
١٧ ـ قانون زوجي : خيريّة الأمّة ، وواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٧

١٨ ـ فرقٌ بين هذا القانون والقوانين الأُخرى ١٨
١٩ ـ كلُّ شيءٍ مُحتاجٌ إلى القوانين ١٩
٢٠ ـ المؤمنُ الحقُّ هو الأجدرُ بمعرفة النواميس والإفادة منها ٢٠
٢١ ـ معرفة القوانين من أُصول النّعم التي تستوجب توحيد الخالق ٢٢
٢٢ ـ قوانين يجب على الأمة الحذرُ منها ٢٣
٢٣ ـ وقوانين يجب على الأمّة أن تُقبل عليها ٢٤
٢٤ ـ من أرضى القوانين : «الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر» ٢٥
٢٥ ـ بقَدْر الموافقة أو المخالفة تكون آثار القوانين الإيجابية أو السّلبية ٢٦
٢٦ ـ لماذا يُسرع الخراب إلى دول دون أخرى؟! ٢٦
٢٧ ـ أسرعُ القوانين خراباً وإفساداً : قانون الظلم ٢٧
٢٨ ـ الظلمُ وضعُ الشيء في غير موضعه على عَمدٍ وقصد ٢٨
٢٩ ـ الفِطَر السّليمة تعرفُ الظلمَ وتنفر منه ٢٩
٣٠ ـ حين يتوبُ الظالم ؛ فما أجملَ العفو ! ٣٠
٣١ ـ قدرة الإنسان على التأليف بين النقائض ٣١
٣٢ ـ ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ ٣٢
٣٣ ـ قانونٌ سالبٌ : (التَّرَفُ يدمّر الدّول ويذهب بالحضارات) ٣٣
٣٤ ـ التَّرفُ في اللّغة ٣٣
٣٥ ـ الترفُ في القرآن الكريم ٣٤
٣٦ ـ الترفُ سببُ هلاك القُرى ، وأعظم مظاهره الفُسوق عن أمر اللّه ٣٥

٣٧ ـ معنى «الأمر» و«الإرادة» في الآية ٣٦
٣٨ ـ الدّمارُ المحمودُ !! ٣٨
٣٩ ـ متى يزدادُ الدّمار؟! ٣٩
٤٠ ـ المترَفونَ يريدونَ الترفَ نمطاً حياتيّاً !! ٣٩
٤١ ـ المجتمعُ العاجزُ يُولد فيه الإنسانُ المدمَّر ٤٠
٤٢ ـ الطائفة المنصورة تدفعُ جزءاً من الترَف ٤١
٤٣ ـ الترفُ صورةٌ كبيرةٌ من صُوَرِ الحرمان ٤٢
٤٤ ـ الترفُ هو الكهفُ الذي يأوي إليه كلُّ شرّ ٤٤
٤٥ ـ الترفُ داءٌ عُضالٌ ومرضٌ فتّاك ٤٤
٤٦ ـ لم يخالط الترف حياةَ النبي ﷺ وأصحابه رضوان اللّه عليهم ٤٥
٤٧ ـ الترفُ يمتدّ شرُّه إلى الفقراء، ولا يصرفهم عنه إلا الاقتداء بالرعيل الأول ٤٦
٤٨ ـ واجبُ العلماء التحذيرُ من الترف ٤٨
٤٩ ـ رفضُ الصحابة الترفَ مع توافُرِ الأموال ٤٩
٥٠ ـ الترفُ يغرسُ الحقدَ في نفوس المحرومين ٥١
٥١ ـ أسوأُ ما يميّز المترَفين: الظلمُ وازدراءُ الضُّعَفاء ٥٢
٥٢ ـ إرادة الخير أقوى من بأساء الترف ٥٣
٥٣ ـ عودة إلى قانون الظلم ٥٤
٥٤ ـ الظلمُ والترف وجهان لعملةٍ واحدة ٥٤
٥٥ ـ الظلم أصلُ الذنوب جميعها ٥٥
٥٦ ـ أنواع الظلم ٥٦

٥٧ ـ بين الظلم والظلمات ٥٧
٥٨ ـ مَن هو الظالم؟ ٥٩
٥٩ ـ الطائفة المنصورة شوكةٌ في حلق الظلم ٦٠
٦٠ ـ نَهمةُ الظُّلم ٦٠
٦١ ـ الحذرُ من صغير الظلم وكبيره ٦١
٦٢ ـ وجوب الإسراعِ في قمع الظلم ونَزْعه من النفوس ٦٢
٦٣ ـ الحبّ المتبادَل بين الظلم وبين الشّيطان ٦٢
٦٤ ـ صنمُ الظلم يهوي ، لكنّ معدنه لا يزول ٦٣
٦٥ ـ الظلم الذي يوقع صاحبه في الكفر البَواح ٦٤
٦٦ ـ إذا صار الظلم عادة ؛ خاصة عند الحاكمين ؛ فللظلم
ألوان وألوان ٦٥
٦٧ ـ ذكرُ الظلم في القرآن الكريم ٦٦
٦٨ ـ عزاءٌ للمظلوم ٦٧
٦٩ ـ ليس للمظلوم أنجع من الصَّبر ٦٨
٧٠ ـ مآلُ الظلم : بطشٌ يأتي بغتة ٦٩
٧١ ـ لا يُدفع الظلمُ إلا بالعدل ، ولا يُنهكُ العدلُ إلا بالظلم ٦٩
٧٢ ـ الظلم إذ لا يُرى قبيحاً ٧١
٧٣ ـ الظلم مُفظع ، والفجوة بين المظلوم وظالمه كبيرة ٧١
٧٤ ـ المظلومُ قويٌّ بضعفه ؛ لأنّ اللَّهَ ناصرُه ٧٢
٧٥ ـ منطق الاستكبار لا يتغيّر ٧٣
٧٦ ـ النصر للضُّعفاء ٧٤
٧٧ ـ الظلم ظلمات يوم القيامة ٧٥

٧٨ ـ أشدُّ الظلم : الذي يُجبَر فيه المظلوم على موافقة ظالمه على ظُلمه ٧٧
٧٩ ـ عالَمٌ بلا ظُلم ! ٧٨
٨٠ ـ حالُ الظالمِ المُظلمةُ ٨٠
٨١ ـ الظالم في سباق مع الموت ٨١
٨٢ ـ دَورُ القلب : الأخذُ أو النبذُ ! ٨١
٨٣ ـ كمالُ الشريعة ٨٢
٨٤ ـ أفدحُ الظلم تعطيلُ الحكم بالإسلام ؛ الذي يبرّره مذهبُ (السّلفيين الجُدُد) في مسمّى الإيمان ٨٣
٨٥ ـ قانون سالب : اختلالُ المفاهيم والقِيَم ٨٤
٨٦ ـ النبوّاتُ تتوارث القِيَم ٨٤
٨٧ ـ دَورُ العلوم والمعارف في خدمة الإسلام ٨٦
٨٨ ـ علمُ الوحي منحَ الأُمةَ المعرفةَ بذاتها ٨٦
٨٩ ـ علمُ الوحي أُسُّ العلوم ٨٧
٩٠ ـ (الغَيْرةُ) حارسٌ أمين ٨٨
٩١ ـ الغيرةُ الإيجابيةُ كرامةٌ يختصّ اللَّه بها طائفةً من عباده ٨٩
٩٢ ـ القدُرات التي تجلبُ الغيرة ٨٩
٩٣ ـ غيرةُ سَعْد ٩١
٩٤ ـ للغيرة اتجاهان : اتجاهُ دفع وردّ ، واتجاهُ استقبال وأخذ ٩١
٩٥ ـ الغيرةُ إذ تُصبح نمطاً واسعاً ؛ يَصلحُ المجتمع ، وتكون هي الضابطَ القانونيَّ له ٩٢

٩٦ ـ تفاوُت الغيرة ؛ التي بها يُصطفى القادة ٩٣
٩٧ ـ فِكْرُ الغيرة ! ٩٥
٩٨ ـ وهنُ الغيرة في هذا الزمان ٩٥
٩٩ ـ الغيرة بمفهومها العالي : تصديقٌ لمراد اللَّه ٩٦
١٠٠ ـ ذهابُ الغيرة يعني حلولَ المآسي ٩٧
١٠١ ـ الغيرةُ فطرةٌ لا تقبل التجزيء ٩٨
١٠٢ ـ مراقبة الغيرة ٩٨
١٠٣ ـ إذا أصاب الغيرةَ الوهنُ ؛ فالواجبُ تفقُّدُ الفطرة .. ٩٩
١٠٤ ـ العَاصِم من القواصِم ١٠٠
١٠٥ ـ غُربةُ الغيرة ١٠١
١٠٦ ـ دَورُ أمثلة الماضي في إذكاءِ روح الغيرة ١٠٣
١٠٧ ـ الغيرة تكاملٌ تلتقي فيه إرادة المؤمن ١٠٤
١٠٨ ـ الغيرة التي يحبّها اللَّه ورسوله هي المقيَّدة بأحكام
الشرع ١٠٤

طبع على نفقة أبناء

الحاج

محمد طرخان

جزاهم الله خيراً

ويوزع مجاناً احتساباً لله

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com